بيلّا
للكاتبة : فاطمة عقيل

بيّلا

الإهداء:

إلى كل من قال لي ذات مرة : لن تستطيعي واستطعت

إلى كل من قال لي الطريق صعب كفاكِ محاولةً فلن تصِلِي لشيء ووصلت .

إلى كل من حاول تحطيمي بكلماته الساخرة

أودّ أن أخبركم : لولا كلماتكم تلك لَمَا وصلت .

مقدّمة

ثمــة أحــلام نحلــم بهــا أثنــاء نومنــا تتحقــق ..تتحقــق ولــو بعــد حين

ولا بدّ أن تتصادم أحلامنا مع واقعنا

ومــا بــين الواقــع والحلــم واقــع نعيشــه ، ومــا بــين الحلــم والواقــع حلم لا بُدّ أن نعيشه .

كعادتي اليومية أشرب القهوة الصّباحية وحدي ، ثمّ أذهب إلى المعهد الموسيقيّ ، لا شيء جديد إنّه الرّوتين اليوميّ ، الروتين موت بطيء لا يحمل حق الرفاهية ، وصديقي الوحيد هو البيانو الذي اعتدتُ على عزفه يوميًا بحكم أني مُدرّب في المعهد الموسيقي ، وموهبتي منذ الصغر هي العزف .. إن الموهبة يا أصدقائي هي درع ذهبي يلمع أمام الناس ، ومنذ نعومة أظفاري عاهدت نفسي أن أصبح عازفاً مشهورًا لأحقق حلم والديّ رحمهما الله منذ أن فقدتُهما بحادث سير أثناء رحلة بعيدة ، ومن خلال هذا الفَقْد الأليم اكتملت هذه الموهبة عندما أخرجت حزني ومعاناتي من داخلي ورميتهم أثناء العزف على الآلة مما أدى إلى إعجاب الجميع في لحني الذي سافر إلى مسامعهم، وكذلك لا أحد يمتلك موهبة دون ألم ومعاناة ، فالشخص الموهوب هو نجمٌ يضيء في السماء نوره يبهر العيون أما بالنسبة إلى هذا النجم المسكين فهو يحترق من شدة معاناته كي يراه الناس بأبهى صورة كما اعتادوا عليه مسبقًا ..

أسمع كل صباح لفيروز ، فإن صدى صوتها يملأ مجرّة كاملة في مسامعي ، ومن ثم أشرب القهوة ، وأنطلق للعمل

منذ فترة وجيزة وأنا أحلم بصوت لحنٍ جميل ، ومن كثرة تكرار ذلك الحلم حاولت بكامل قواي أن أعزف ذلك اللحن ولم أستطع على أرض الواقع ، فتاة شقراء ذات بشرة بيضاء وعينان خضراوتان وشفاه ممتلئة ووردية وشعر طويل يعانق أسفل ظهرها ..

ذات خصر نحيل تجلس أمام ذلك البيانو وتعزف تلك المقطوعة وأنا أجلس أمامها أسمع وأتأمل عينيها الخضراوتين وأسافر من خضرة عينيها إلى واقعي فأستيقظ ، لن أنكر أني أحاول النوم مجددًا وأعيد اختراع ذلك الحلم من نفسي كي أمتع ناظري بحُسن تلك الفتاة ، ولكنّي أفشل في اختراع ذلك الحلم فأعود من السفر فاشلاً في اختراع الحلم مجددًّا حاملاً معي عينيها والخيبات نعم لقد وقعت بحب فتاة في حلمي وبذلك أنا أُسعد نفسي ، ويا لتلك النفس الخضراء لدي والتي تُعجب بالنساء الحسناوات، ولكن كيف لي أن أحب فتاة في حلم لم أصادفها في الواقع ؟

فهل سأصادف يومًا تلك الفتاة الحسناء في واقعي ؟

وأنت يا عزيزي القارئ إن كنت تحب النساء وأحببت يومًا فتاة في حلمك ولا تستطيع محادثتها أو أن تبحث عنها في الواقع ماذا تفعل ؟

-سأحاول النوم رُغمًا عني وسأخترع حلمًا من أجلها وستكون هي بطلة الحلم .

في المعهد ..

-صباح الخير يا شباب

صباح النور

-قبل أن نبدأ اليوم بالعزف وصلنا البارحة في النوتة إلى الموسيقا الكلاسيكية ، من منكم يعرف عن هذا النوع؟

-نشأ معها بيتهوفن

-صحيح .. مع ظهور هذه الموسيقا كان بيتهوفن في تلك الحقبة الكلاسيكية أشد تميّزًا وإبداعًا ، وتميزت الموسيقا الكلاسيكية بكثرة استخدام الآلات الموسيقية وأشهرها الوتريات ، والكمان ، والفيولا ، والكلارينيت الكلاسيكي ... إلخ ، ومع تطور هذا النوع من الموسيقا الكلاسيكية ظهرت رموز المُدرّج الموسيقي ..

وخلال تلك الحقبة الكلاسيكة كثر الرقص وأصبح أكثر انتشارًا مقارنة بالحقبات السابقة ، وأنا كمدرب أطرح رأيًا سأقول العصر الكلاسيكي كان أكثر تميّزًا ، ليس لأن بيتهوفن هو من ميّز العصر لا ، بل كانت الحقبة بجميع تفاصيلها مميزة من الملابس والمنازل ، وحتى الموضة ، والفساتين كان كل شيء مختلف ..

-أستاذ هل أستطيع أن أضفي برأيي؟

-تفضل

-لو أننا نظرنا إلى الأجيال السابقة لتمنينا العيش في تلك الظروف ، والعكس صحيح

-معك حق ، ولكن في نهاية المطاف أفضل ما يمكن هو الرضا ، فلا أحد ينظر إلى أي شيء هو يمتلكه ، كل منا ينظر إلى ما ينقصه ويجده بالآخر ، والكمال كلّه لله تعالى.

والآن هل لديكم أي سؤال حول تلك المعلومات قبل البدء بالعزف ؟

-نعم ، من هم الموسيقيون في العصر الكلاسيكي إلى جانب بيتهوفن؟

-جوزيف هايدن ، فرانز شوبرت ، وساليبري ، وجوسيك .... إلخ

-هل من سؤال آخر ؟

لم يُجب أحد

-جميل لأبدأ بالعزف إذًا ..

بدأ صوت البيانو يتعالى ويتعاظم في الصف ، لا صوت في الصف سوى معاناة المدرّب ، أكثرهم إبداعًا أشدّهم ألمًا ، فالصدى الداخلي يصرخ بينما الطلاب يستمتعون لذلك الصوت الجميل ، وهم لا يعلمون عن كمية المعاناة التي تكمُن بين ثنايا اللحن ، فمشروع النجاة من الحياة أصعب من مقاومتها ، أنجو بالعزف ، وأتمتّعُ باللحن .

-والآن انتيهت من العزف بإمكانكم المغادرة ..

غـــادر الجميـــع مـــن الصـــف إلا ســـامر بقـــي راســـخًا علـــى كرسيّه..

-مـــا الأمـــر يـــا ســـامر؟ أيوجـــد لاصـــق علـــى كرســـيك لا تســـتطيع النهوض منه ؟

نهض سامر وتوجّه نحو الأستاذ واقفًا أمامه

-أســـتاذ عنـــدما قلـــت أن بيتهـــوفن أشـــدهم براعـــة اســـتوقفتني هـــذه العبـــارة ، ولكنـــي عـــاجز تمامًـــا أن أصـــبح مميـــزًا مثلـــه ، ولا أملـــك النقـــود كـــي أصـــبح ناجحًـــا ،ولا الموهبـــة كـــي أؤهـــل نفســـي للنجاح، إني لا أملك شيئاً .

-أولاً مـــن قـــال أن النجـــاح يـــرتبط بالماديـــات؟ النجـــاح يبـــدأ منـــك أنـــت ، عنـــدما تريـــد الســـعي نحـــو هـــدف مـــا هـــذا الســـعي لـــن ينظـــر إلـــى مـــافي جيبـــك ، ولكـــن لـــن أنكـــر أن المحاولـــة نحـــو النجـــاح هـــو أشـــد أنـــواع المعانـــاة ، ومـــن أبرزهـــا الخـــوف مـــن الفشـــل ، أو الوصـــول إلـــى نتيجـــة لا ترضـــيك ، والأهـــم مـــن كـــل هـــذا الكـــلام هـــو عـــدم الاستســـلام لأنـــه ينصـــف الفشـــل بذاتـــه، فـــلا خيـــل بـــلا فـــارس ، ولا نجـــاح دون هـــدف ، وتـــذكر أنـــك أمـــام الله غيـــر مســـؤول إلا عـــن ســـعيك ، هيـــا يـــا عزيـــزي ســـامر أريـــد عنـــدما أدربـــك أســـمع منـــك أبهـــى العـــزف ، هيّـــا عليـــك المحاولة ، إن لم تبدأ بنفسك لن تصل إلى هدفك .

- كنت أود أن أسمع أي كلمة تحفيز من أي أحد شكرًا لك.

لا أعلم من أين أسرد كل هذا الكلام إن كنتُ أنا بنفسي لا أطبّقه ، تباً لك أيها اللسان الجميل .

وعند مروري بممرّ المعهد سمعت صوت لحن رائع يعمّ أرجاء صفّ ما ، إيقاع ممزوج بالألم ، لا بدّ أن الشخص الذي يعزف بكل هذه المهارة يعاني...

تبّاً لذاكرتي هذا اللحن سمعته من قبل ، ولكن أين ؟

من أين يمتلك هذا الشخص كل هذا بالإبداع بالعزف ؟

نعم تذكّرت .. هذا اللحن سمعته أثناء عزف الفتاة الحسناء في حلمي ، والآن سأرى من يقوم بجعلنا نسمع أصداء معاناته ..

لا يا ربّي إني لا أصدق عيناي

أيعقل؟

في هذه الحياة لا يوجد صدف عبثية بل قدر حتمي ..

إنها الفتاة الحسناء تجلس أمام البيانو، الفتاة التي أخبرتكم عنها هي أمامي الآن ، تعزف وتعزف بكل ما بوسعها ، تعزف كل المقطوعة التي أسمعها أثناء نومي ..

هذه الفتاة لطالما حلمت بها أراها أمامي كالملاك ..

سحقًا للحب لأنه يجعل من الشخص ضريرًا تمامًا عن عيوب محبوبه ، ولو نظرنا منذ البداية إلى تلك العيوب إما هجرنا أو أحببنا ما هم عليه ، أما في نظرية الحياة الحب سِتار للعيوب لا يمكن فتحه إلا عند انتهاء ذلك الحب ، وعند نهاية الحب وخصوصًا في بداية التخطّي نسأل أنفسنا كيف أحببناهم وهم يمتلكون كل هذه العيوب ؟

ببساطة نكون في مرحلة الاستيعاب وهي مرحلة إدراك قيمة أنفسنا بأننا نستحق الأفضل دائمًا .

أتساءل هل أذهب إليها لأكلمها ؟

يا إلهي إنها تعزف وعيناها مغلقة ، ربّما تتخيل نفسها مع شخص ما .. يا لها من خائنة ، ولكن ماذا لو كانت مرتبطة ؟ وما الذي تفعله هذه الفتاة معنا في المعهد ؟ كل هذه الأسئلة تدور في رأسي وأنا في أول غرفة الصف أتأملها ولا أشعر بالوقت ، ولا أعرف من هذه السيدة التي تقف بجوارها وهي تنظر لفتاتي مبتسمة وكأن هذا الفتاة انتصارها العظيم ..

تمنيت أن يقف الزمن عند هذه اللحظة هي تغمض عينيها وأنا أتأملها وهي تتخيل ، أو أن نتخيل معاً أنا أعزف لها وهي ترقص ، كل هذا التخيل كان كالضوء المتأجج الذي انطفأ فجأة عندما نادتني السيدة التي تقف بجوارها قاطعة تلك الأحلام الوردية التي رسمتها مع الفتاة ..

-عفوًا هل تنتظر أحد هنا ؟

فوجئت عندما تكلمت معي باللغة العربية قلت لها :

-أنا مدرب موسيقي هنا ومختص بعزف البيانو

-يا أهلا يا أهلا أستاذ ، عفوًا ولكنني ظننتك طالبًا هنا لأن ملامحك تبدو أصغر سنًا ..

-شكرًا لك ، ولكن هل عرّفتموني عن أنفسكم ؟

-أنا ناديا وهذه ابنتي بيلا

-أهلاً بكم

-من أين أنت يا أستاذ؟

-من سورية

- سورية الشقيقة ، نحن من لبنان .. تشرّفنا بمعرفتك كثيرًا

-شكرًا لكِ ، وأهلاً بجميع سكان لبنان

-بما إنك أنت المدرب الموسيقي للبيانو هذا يعني أنت من ستدرّب ابنتي ..

قلتُ في نفسي :

أيعقل هذه لعبة من القدر ؟ كيف لفتاة صادفتها لمرات في الحلم أراها الآن أمام عيناي ؟ أيعقل ؟

أتُــرى هــل كــان الحلــم حقيقــة أنــا أغيــب عــن الــوعي وروحــي تخــرج مــن جســدي وتلتقــي بروحهــا ، هــل هــي تعلــم بــذلك الحــب وأقــوم الآن بخطبتهــا بعــد عهــد حــب أحببتهــا إيــاه منــذ فترة ؟

الحــبّ جميــل جــدًا ، ولكــن لــيس أجمــل مــن تحقيــق حلمــك ، وكلاهما أنتِ يا بيلا ، أنتِ حبّي وحلمي ..

قاطعت السيدة خصال أفكاري :

-لم تردّ عليّ يا أستاذ ، ستدرّب ابنتي ؟

-نعم وسأضمّها

تمنّيت أن أقول : سأضمّها إلى قلبي

-نعم سأضمّها إلى الفريق

ولكــن لا بــأس سأضــمها إلــى فريــق قلبــي وهــي ســتكون رئيســة له ..

-ولكن ابنتي ضريرة

فــي الحقيقــة كانــت تلــك الكلمــات كالرّعــد الــذي ضــرب رأســي ودمّــر أحلامــي التــي حلمــت بهــا .. بــدأتُ فــي نفســي ألــوم بــيلا .. كيــف لهــا بــأن لــم تخبرنــي فــي الحلــم ؟ أو كيــف لعينــاي اللعينتان لم تبصرها ؟

حتّى أحلامنا تكذب ولكن أعيننا تصدّق كل ما تراه ، ولكن الواقع هو الأصدق على الإطلاق والأكثر ألمًا ، أو بالأحرى قلوبنا هي التي تكذّب بصيرتنا عن العيوب ، لم أرَ في حياتي محبّاً يرى عيبًا في محبوبه ، وإن رأى ذلك العيب وأعارَكَ فيه فاعلم أنّ الحبّ قد انتهى أو كان مزيّفًا من البداية ، وإن رأى ذلك العيب وأحبّه فيعني أنه وصل لأعلى درجات العشق ، ولذلك أحببتُ عيبها ..

في الصف ..

سأعرّفكم على زميلتكم الجديدة

" بيلا "

مسكتُ بيدها وأخذتُ بها إلى المنصّة ..

لم أعلم بأنّ مسكة يد من يديها تزيد العاشق عشقًا ، ومن ظمأ عاشقٍ مثلي رويّةً ، كيف لي بلمسة من يديها تجعلني أهيم بها مجددًا ؟

كانت لمسة حرير من يدها جعلت مني ثملاً تمامًا

إن بداية كلّ شيء لا يُنسى ، وتمنّيت للحظة انتهاء وصولنا للمنصّة ألّا تترك يدي ، وأخاف إن تركتُ يدي منها أضيع من نفسي وأعود مجهول الهويّة خائبًا ..

-مرحبًا ، اسمي بيلا عمري ثمانية عشر عامًا ، في الواقع أنا ضريرة ، لدي موهبة العزف منذ الطفولة من قبل أن أفقد بصري ، ولكن ألمي ساعدني على إكمال الموهبة ، وفقدت بصري عندما كنت أقطع الشارع صدمت بي شاحنة ..

سكون عمَّ في الصف .. حينها قلت :

-بيلا تتقن العزف وسأضمّها زميلة لكم ، واعلموا أيها الطلاب سيكون لدينا حفل في الفترة القادمة ، والآن بإمكانكم المغادرة .. هل أساعدك يا بيلا بالنزول ؟

-لا يا أستاذ شكرًا عندما أمشي طريقاً مرة واحدة أستطيع بسهولة المشي به مرة ثانية حتى وإن كنت ضريرة

قالت إحدى الطالبات :

سآخذها معي

خرج الجميع إلا سامر

قلتُ له :

-أرأيت يا سامر؟ ألم تكن قصة بيلا حافزًا كي تنمي مهاراتك؟

-بلى ، أحببت قصتها وسأعمل على تطوير ذاتي يا أستاذي

-بالتوفيق يا عزيزي

خرجـــتُ وفـــي ســـيري داخـــل الممـــر بـــدأت نبضـــات قلبـــي بالتزايـــد حينهـــا علمـــتُ أنهـــا قريبـــة منـــي ، حيـــث قـــاطعني مرورهـــا نبضـــات قلبـــي عنـــدما رأيتهـــا هـــي ووالـــدتها تمـــرّان أمامي ..

-بيلا ؟

التفتا إليّ

-أردتُ أن أخبـــركِ شـــيئًا قبـــل مغادرتـــك .. بعـــد فتـــرة وجيـــزة ســـيتم انتقـــاء شـــخص واحـــد مـــن أجـــل حفـــل ضـــخم ســـيُقام فـــي لنـــدن ، حيـــث قـــام رئـــيس الفرقـــة الموســـيقية الخـــاص بالحفـــل تنظـــيم الفرقـــة وأخبرنـــي أنـــه يريـــد شـــخص واحـــد مـــن طلابـــي ، حيـــث ســـيختاره بنفســـه عنـــدما يـــنجح باختبـــار العـــزف وأنـــا الآن أمام الشخص الصحيح ، وقلت عليّ أن أخبرك بذلك ..

-ولكن لن يقبل بفتاة لا ترى ، وإن خذلتك أمامه ؟

-ســـتفعلينها وســـتنجحي بالاختبـــار ، هكـــذا أخبرنـــي قلبـــي ، وأنـــا أثق به كثيرًا .

-أعدك يا أستاذ .. أعدك بأني لن أخذلك

بعد تلك الجملة قلتُ في نفسي :

وقلبي ؟ أتمنى ألّا تخذلي قلبي

-حسنًا بالتوفيق .

في اليوم التالي في المعهد

أيهـا الطـلاب سـوف يقـام حفـل ضـخم فـي لنـدن ، وسـيتم انتقـاء عازف بيانو واحد من معهدنا على أن يتم توقيع العقد معه

مـن أجـل إجـراء الحفـل ، والآن أنـا اختـرت هـذا الطالـب ، وسيتم معه إجراء الاختبار بالعزف ، والطالبة هي بيلا ..

صُعِق الجميع ..

-لمَ بيلا بالتحديد ؟

-بيلا فتاة كفيفة لا تستطيع العزف بإتقان

-بيلا منذ يوم واحد عرفناها ، كيف يتم انتقاؤها فجأة ؟

-أيعقل هذه الفتاة ستستطيع أن تنجح في الاختبار ؟

تلك كانت أسئلة الطلاب ..

كفى جميعًا ..

فـي الواقـع بـيلا عازفـة مـاهرة وموهوبـة جـدًا ، فتـاة تعـزف بقلبها دون رؤية البيانو ، وأنا واثق أنها ستنجح ..

منـذ أول مـرة رأيتهـا وهـي تعـزف أعجبنـي جـدًا عزفهـا ، وأنـا أثق تمامًا بأنها ستنجح في الأمر ..

بعد مرور أسبوع كنا في غرفة التدريب ننتظر المدرب ..

قلتُ لها :

-أتؤمني بالصّدف ؟

-في الواقع نعم ، كل إنسان يمر بصدفة معينة إما أن تنقلب حياته للأفضل ، وإما للأسوأ ، وأنت ؟

-أنا لا أؤمن بالصدف أبدًا .. أنا أؤمن بالقدر

وأشعر أني أعرفك منذ مئة عام

قالت بمزاح :

-وأنا أيضاً عندما رأيتك شعرت أني أعرفك من قبل ..

بدأنا نضحك...

-ضحكتك جذابة جدًا ، جذاب هذا القمر في منتصف خدك عندما تضحكين ..

أريد أن أسألك .. كيف تتخيّلين شكلي كمدرب ؟

-طولك كسنبلة القمح ، وشعرك عنقود من عناقيد الليل ، وعيناك لؤلؤتان سوداوتان، ووجهك كالثلج في بياضه .. لا أدري هكذا أنت في خيالي

-وصفك جميل جداً ..

في الحقيقة أنا متوسط القامة وشعري أسود كما قلتِ ، ووجهي حنطي اللون ، وعيناي بنيتان ، ولدي عضلات أيضًا

-جميل جداً سأعيد ترتيب شكلك في خيالي ..

أتعلـــم ؟ الحيـــاة فـــي الخيـــال رائعـــة جـــداً تختلـــف عـــن بشـــاعة الواقع ، وتستطيع أن تؤلف حياة كاملة وجميلة .

-خذيني إلى خيالك إذاً ..

-السفر إلى مخيّلتي مكلف جداً

-وإن كلفني البصر آتي ...

قالت ممازحة :

-إن كانـــت تضـــحيتك كبيـــرة إلـــى هـــذه الدرجـــة فـــابقَ فـــي واقعك، ودعني أعيش في خيالي

قولي لي هل سبق أن أحببتِ أحد من قبل ؟

-لا ، فأنـــا الأنثـــى التـــي لا تقـــع بالحـــب لأنـــي الأكثـــر عقلانيّـــة ، ولكـــن هـــذا لا يعنـــي أنّـــي لا أملـــك قلبًـــا بـــل قلبـــي يحـــوي جيشًـــا من العواطف .

-ألن تريدي تجربة الحب ؟

-أظـــن لا أحـــد يســـتحق الحـــب ســـوى نفســـي هكـــذا علمتنـــي الحياة

-كـــل منـــا يحـــب نفســـه لدرجـــة معينـــة .. ولكـــن مـــن حقـــك الطبيعي أن تحبي وأن تعطي مشاعرك حقها ..

-الحب هو عبارة عن ضربة خذلان ستأتي ولو بعد حين

-أصـــابعك غيـــر متشـــابهة .. كـــل منـــا لديـــه طريقـــة خاصـــة بالحـــب .. اســـمعي أنـــا أريـــد أن أتقـــرّب منـــك كـــي أعرفـــك .. ولن أنكر أني شعرتُ بشيء غريب ....

قاطعتني قائلة :

-لا مشـــكلة ، بالمناســـبة لقـــد فوجئـــت عنـــدما وجـــدت جميـــع الطلاب هنا عرب ..

أحببت طريقتها في تخطي الموضوع ..

-نعــم هــذا المعهــد جميــع طلابــه عــرب ، وحتــى مــدرب الحفــل عربي ..

-جميل جداً لنبدأ بالتدريب قبل أن يأتي المدرب

وصل المدرب ..

قالها سامر أثناء وقوفه عند أول الممر ..

المدرب علي : مرحبا

-أهلا بالمدرب علي

علي : كيف حالك ؟

-الحمد لله تفضل تفضل

علي : سأجلس هنا

-أينما تجلس جميع مطارحك بركة

علي : سلمك الله ، من منكم انتقاه الأستاذ طوني ؟

- بيلا .. تفضلي يا بيلا

علي : Hello miss Bella

-إنها عربية من لبنان

علي : ما شاء الله جميلة جداً ظننتها أوروبية

اشتعلت الغيرة في صدري وكأنها جمر يلتهب

-أنت الجميل أخ علي

بيلا : مرحبا

علـــي : مرحبـــا تفضـــلي يـــا بـــيلا .. دعـــي أذنـــي تـــرقص أثنـــاء عزفك

-من الواضح أذنك تحب الرقص يا أستاذ علي

-نعم ، وخصوصًا من الفتيات الحسناوات ..

قلتُ مقاطعًا :

تفضلي يا بيلا راقصي أُذُن الأستاذ علي

وبدأت بالعزف ..

علـــي : يـــا لجمـــال هـــذا العـــزف ، انتقـــاؤك كـــان أفضـــل لـــي ولفريقي

الحفـــل ســـيكون يـــوم الخمـــيس فـــي تمـــام الســـاعة الســـابعة مســـاءً ، والدعوة عامة ..

-إن شاء الله ، عافاك الله أخي علي

علي : وإياك يا صاحبي ..

ماذا سأرتدي يوم الخميس ؟

في الحقيقة لقد شعرت بشعور الإناث عندما يبحثن عن ملابس ليرتدونها بالرغم من وجود الكثير في الخزانة ولكن شعور أن الخزانة فارغة كنت أشعر به أيضاً والحمد لله أني لست أنثى لكنت كل يوم بكيت أمام خزانتي ، فالأناقة لدى الإناث يعتبر من الأساسيات في حياتها ، وربما أهم من الحب، وإن خيّرت الفتاة بين البكاء من أجل عدم وجود ملابس أم عدم وجود حبيب يهتم بها .. من ستختار برأيك ؟

لا تفكر كثيراً ، ستختار وجود ملابس وستفضّل البكاء من أجل عدم وجود حبيب ، إنها الأنثى يا عزيزي ..

والآن سأختار بدلة سوداء ، وقميص أبيض، وحذاء أسود، ولكن ما الفائدة إن كانت لا ترى ما أرتدي ..

سأضع عطراً تظل تستنشقه لوصولها للمنزل .. إنه ليس عطر ساحر النساء كما تظنون ..

والساعة هذه فضية اللون ..

والآن لقد جهزت نفسي للموعد صحيح هو الخميس ، واليوم هو الاثنين ولكني أنتظر على أحر من الجمر ..

فكـــرت كثيـــرًا قبـــل أن أتجـــرأ وأتصـــل بفتـــاتي ، ولكنـــزي تجرأت

-ألو .. كيف حالك يا سيدة البيانو

بيلا تضحك بخجل : سيدة البيانو؟

-يليـق بـكِ أن تكـوني سـيدته ، عنـد حضـورك وجلوسـك أمامـه أظنـه هـو مـن يخـاف مـن جمالـك وجاذبيتـك ويبـدأ هـو وحـده بالعزف دون أي إتقان منك ..

-أتُرى هذا هو التفسير لإتقاني للعزف ؟

أو لـــمَ لا تقـــل أنـــه عنـــدما أرى حضـــورك الـــلاذع أُتقـــن لا إراديًا؟

-من معي ؟ بيلا ؟ دعيني أتأكد من الرقم

بدأت هي تضحك

-حتـــى ضـــحكتك عـــزف ، ولكـــن كيـــف رأيتنـــي عنـــدما أتقنـــتِ؟ أخبريني من خيالك

-رأيتك بقلبي ، ألن يكفِ؟

-وإن جئتك إلى الخيال ؟

-سأراك معي تحت المطر حينها سأتقن العزف

-أستنتج من هذا أنك تحبين المطر ؟

-نعم والرقص تحت المطر

-ماذا لو رقصنا ؟

- إن استطعت الرؤية سأرقص معك أعدك

-وإن قلت لك سترين؟

- أنا أقطع لك الأمل بالرقصة وأنت تفتح لي آفاقًا جديدة ؟

كيف سأستطيع؟

-سترين وأنا أعدك بذلك ..

- يا رب هذه أمنيتي

-وكيف تجهيزك لحفل يوم الخميس ؟

- خائفة قليلاً .. أخاف أن أفشل

-كيف تخافين والله بجانبك ؟ عندما وضعك الله في هذا الموقف هو عالم تمامًا بأنك تستطيعين فعلها ، وأنا أثق بك.

-إن شاء الله لن أخيب أملك ..

في الحقيقة لم أخبرها بأني كنت أراها في أحلامي قبل أن أراها في الواقع ، فيقال إن تحدثت عن أحلامك أمام أحد يضيع منك الحلم ، فأخاف أن تضيع مني ويضيع الحلم ، فقررت السكوت عن الموضوع حتى إشعار آخر ، وأثق أني سأخبرها ذات يوم ...

في الحفل ..

تقـــدمت فتـــاتي إلـــى الســـاحة ، وشـــدّت كـــل الأضـــواء إليهـــا بإطلالتها المميزة ..

تلك هي بيلا ..

ترتـــدي فســـتانًا لونـــه أســـود مفتـــوح الظهـــر ولديـــه شـــق جـــانبي يصـــل إلـــى منتصـــف الفخـــذ ، وشـــعرها مصـــفف مرفـــوع ، وتضـــع مكياجًـــا بســـيطًا جـــداً .. تســـير بجانبهـــا أمهـــا كـــي تساعدها للوصول إلى كرسي البيانو ..

قـــدومها جـــذّاب وكأنهـــا عارضـــة أزيـــاء ، يـــا إلهـــي كـــم أحبهـــا وكم هي تحب نفسها ..

بـــدأ النـــاس يصـــفقون عنـــد دخـــول العـــازفين إلـــى المســـرح ، وقـــف الجميـــع أمـــام آلاتهـــم ، حيـــث كانـــت حركـــات بـــيلا المتـــوترة يُلاحـــظ عليهـــا والتـــي كانـــت تحـــاول الجلـــوس فنجحـــت بـــذلك ، كنـــت أراقبهـــا جيـــدًا مـــن خـــلال جلوســـي فـــي المقاعـــد الأولى بحكم أني مدرب من جزء هذا الحفل ..

صعد مشرف الحفل على المنصة ..

Hello , my name is Ali

I am a party trainer , l was pleased with every one ..

ثم نظر خلفه وقال :

Ready?

قالوا بصوت واحد :

Yes

-nice , so start

One .. two .. three

بدأ العزف ..

بـــدأ العـــزف الصـــاخب يمـــلأ المكـــان ، كانـــت نظراتـــي معلقـــة بهـــا، لـــم أبـــالِ لأي أحـــد ســـواها ، كـــان الجميـــع يســـتمتع بـــالعزف وأنا كنتُ مستمتعًا بتأملي لها ..

كانـــت مغمضـــة العينـــين ، مبتســـمة ، وكأنهـــا تـــرقص فـــي مخيلتهـــا ، وكـــم كنـــت أشـــتهي أنهـــا تتخيلنـــي وأنـــا أرقـــص معها..

إنهـــا فتـــاة موهوبـــة وبـــرغم أنهـــا كفيفـــة ولكنهـــا لـــم تكـــف عـــن مطـــاردة أحلامهـــا ، هـــي تحـــب طموحهـــا جـــدًا وأنـــا أحـــب حبهـــا لذلك الطموح ، كنت أود وجود هذا الشخص في حياتي

فـــي حـــين أن أســـقط أجـــده معـــي ، أحيانًـــا نتعـــب مـــن المحاولـــة ومـــن الفشـــل فنحتـــاج كثيـــراً مـــن يســـاندنا أو يحفزنـــا ويقـــول لنـــا ستصـــلوا إلـــى هـــدفكم ، اســـتمروا ..اســـتمروا .. سننســـى التعـــب بلـــذة الوصـــول ، إيـــاكم والاستســـلام ، فالاستســـلام ينصـــف الفشـــل ، والإرادة القويـــة تصـــنع المعجـــزات ، والكـــلام الســـلبي الـــذي نســـمعه مـــا هـــو إلا كـــلام فـــارغ نضـــعه أســـفل ســـلم نجاحنـــا كـــي نصـــعد عليـــه ، كـــل هـــذا الكـــلام نحتاجـــه عنـــدما نحـــبط مـــن ألـــم المقاومـــة ، هـــذه بـــيلا التـــي أردتهـــا ، هـــذه الفتـــاة هـــي أم الإرداة إن أرادت فعلـــت ، هـــذه الفتـــاة قصـــة أمـــل لجميـــع الفاشلين ..

وانتهـــت تلـــك الأفكـــار لـــدي بمجـــرد انتهـــاء الحفـــل وتصـــفيق الجميع لهم ..

قمت من مكاني وصعدت على المسرح ..

Hello,

My name is Tony , I am a piano trainer

When I train Bella , I loved her

And I want to marry her.

وقف الجميع وبدأت أصوات الفرح تتعالى ..

التفـــتّ إلـــى بـــيلا كانـــت تبتســـم بخجـــل ، وشـــعرت أنهـــا بحالـــة صدمة

وذهبـــت إليهـــا ، أخرجـــت علبـــة الخـــاتم مـــن جيبـــي وفتحتهـــا وأخرجت الخاتم منها وجثوت قائلاً :

Marry me ?

كانت هي تضحك ، وبدأت دموعها تنساب فقالت :

-yes

ألبستها الخاتم وحملتها بين ذراعي أدور بها ، والجميع يصفق بحرارة ..

خرجنا من الحفل ، بيلا وأمها تسيران بجانبي

السيدة ناديا :لم أتوقع أبدًا أن تخطبها وبحكم الأصول عليك أن تخبرني أولاً ..

-معك حق أعتذر لهذا الموقف ، ولكنني أردت فقط أن أفرحها وأن أفاجئها ..

-متى أحببتها وكيف؟

-عند أول لقاء لي معها ، وأعتذر مرة أخرى لأجل الموقف

-لا عليك أنا لا أريد من هذه الحياة سوى أن تكون ابنتي سعيدة في حياتها

- ستكون أسعد شخص معي

-وفقكم الله

-سآخذكم بطريقي

-شكراً لك ولكن هنا التاكسي التي قدمنا بها

بيلا : اذهبي أنت يا أمي سأذهب معه

قلتُ بابتسامة : سأوصل بيلا أنا إن شئت

-حسناً ولكن لا تتأخري يا حبيبتي

-إن شاء الله

أمسكت بيدها وأخذت بها إلى السيارة ..

-كنتِ جميلة جداً اليوم

-أعرف هذا ولكن شكراً لهذا الإطراء

-هذه حقيقة لا ينكرها سوى مجنون

-أحب المجانين لأنهم أحياناً ينطقون بأحكام جميلة ، وربما هذه الحياة صفعتهم بشدة ، لذلك يقولون خذ الحكمة من مجنون

-صحيح ، وجمالك اليوم وحسن أدائك يجعل العاقل مجنوناً

-شكراً لك مرة ثانية

-لِمنْ تحبين أن تسمعي؟

-عمرو دياب

-ذوقك رفيع جداً

وضعت لها أغنية " وماله "

وماله لو ليلة تهنا بعيد وسبنا كل الناس أنا يا حبيبي حاسس بحب جديد ماليني ده الإحساس وأنا هنا جنبي أغلى الناس ..

أنا جنبي أحلى الناس ..

كـم نحـبّ المشـاعر التـي تكمـنُ فـي النظـرات ، هـذه المشـاعر لهـا لغتهـا الخاصـة والتـي تتحـدث آلاف الكلمـات بشـتى اللغات

هـذه المشـاعر تسـقط فـي قـاع القلـب ليسـت مجـرد نظـرات وحسـب ، نسـيان تلـك المشـاعر جريمـة يعاقـب عليهـا القـانون والتي لا تُغتفر ..

كـم تمنيـتُ أن نتأمـل عينـيّ بعضـنا الـبعض ،ولكـن القَـدَر أقـوى مـن أي ظـرف ، لـم يكتـب لـي الـدهر أن أعـيش هـذه اللحظات معها حتى عندما أبصرت ...

كثيراً ما نسمع عن عبارة " المحب يرى بقلبه لا بعينه "

كنـتُ دائمًـا أسـألها كيـف ترينـي ؟ وكيـف أحببتنـي رغـم أنـك لا تحبي ، وكيف حتى قبِلت الخطوبة مني إن لم ولا تحب ؟

جوابهـا الـدائم كانـت تصـنعني فـي مخيلتهـا ، ولكـن مـاذا لـو أبصرت ورأت الواقع حكاية أخرى ؟

دائمًـا هـذه الحيـاة نصـفها حـزن والنصـف الآخـر خـذلان ، وحتـى اللحظـات السـعيدة تكـون فـي الخيـال ، كنـتُ أسـألها أيضًا هل الحياة في الخيال تختلف عن الواقع ؟

والجواب طبعاً هو نعم ، وحتى الحب أجمل ..

ولكن ماذا لو كنت أنا الشخص الضرير؟

هـل سـأحبها مـن سـماع لحـن ، أو مـن أنهـا أمسـكت يـدي لتسـاعدني ، أو أنـي قـدمت لهـا خاتمًـا وعرضـت عليهـا الزواج أمام الجميع ؟

كانــت غامضــة .. غامضــة جــدًا .. كيــف لهــا ان تقبــل عــرض الخطوبة إن لم تحب؟

ثمــة شــيء كــان لا يريحنــي فــي هــذه العلاقــة ، هــي كيــف أحبتني؟

وأجوبتها لم تقنعني ..

هل هي تحبني حقاً أم أنها تحب حبي لها ؟

كانــت هــذه الأســئلة تــدور فــي رأســي دون أي تفســير أو جواب منطقي ..

فأنا من نفسي لم أتوقع أن أقع في الحب ..

كنــت دائمًــا أنظــر لجميــع النســاء ، وأقــع بغــرض بالإعجــاب بهــن إلا أن قلبــي أعلــن حبــه واســتقراره مــع هــذه الفتــاة، وبرغم أنها كفيفة إلا أني اكتفيت بها ..

وغالبًــا المحــب الــذي لا تكفيــه علاقــة واحــدة يوجــد نقــص فيــه فيكثر من علاقاته كي يملأ النقص ..

إلا أنتِ يا بيلّا اكتفيت بك ..

لا أتوقــع أبــدًا الشــخص الــذي يحبــك يــا بــيلا ســيحب غيــرك ، وإن أحــب فلــن يخــرج منــك ، أنــتِ الأنثــى إن تُركْــتِ ســيبقى أثــرك فــي جميــع النســاء ، ولــو أســقطت الســماء ســرابًا مــنهنّ لن ينسى أثرك

لقد كان معيار قلبي رافضًا للحب فخالفتُه حينما القيتك

كان بداخلي دمار وحرب حتى وقفتِ على أطلالي وبكيتِ من شدة الخراب تعاطفًا معي فأزهر الرماد وعادت الحياة،

لقد أخذتِ بي من عالم الموت وأعدتني إلى نفسي ، ولا أراكِ إلا إكليلاً على رأسي يا سيدتي

أتسمحين لي بأن أضم عينيك لقلبي كي أحفظهما معي؟

إني أخشى عليهم من العابرين فيأخذهم الغريب ويرحل ، وأعود أنا والخيبات ، وتنسين من أحبك يومًا ، فيرحل هواكِ نحوي إلى غربته فأقرر الاغتراب لمنفىً بعيد ، لقد رضخ قلبي لك رغم ظروفه ، وحاشا للقلب هذا أن يخون يا سيدة النساء ..

سأكون لكِ وحدك وكوني أنت لنفسك ، فإني أحب كبريائك ولكن لا تجعليني في ديار النسيان .

أبصرتُ إلى كفّ يدي فلم أرَ سوى حروف اسمك ، وفي المرآة رأيت صورتك في عيناي ، فهل أنا في حلم ؟

أم أنك تحيطين بي في كل مكان ؟

دعيني إذًا أقبّل صورتك حتى لا ترحلي بعيدًا فيجنّ عاشقك ،

فحبّي لك حبّاً سرمديًّا صعب النسيان ، تعاطفي معي سيدتي ، وكوني قاضيًا لي واحكمي عليّ بالمؤبّد داخل صومعة قلبك وأعدك بعدم الهروب ، فالقضاة هم الحق وهم العدالة

مررتُ هذه المرة كي آخذ معي بيلّا إلى المعهد ، ودخلنا معًا، بدأت نظرات الشكوك حولنا ، بدأ الجميع ينظر لنا وكأننا فاجعة أمامهم ، فالنسبة التي تغلب هنا من أقسام الطلاب لم يحضروا حفل لندن الكبير ، كانت فاجعتهم عندما رأوني أمسك بيدها بحنان ، وخصوصًا عندما أخبرتهم سابقًا بأني لا أحب الحب وأحببت ، كنتُ تائهًا غارقًا في عالمي الخاص ، وكم كنت صعب الوقوع بالحب ، وكنت غارقًا في بؤسي أتألم أواجه الناس بوجه بشوش وضاحك ، وخلف تلك الضحكة تجاعيد حزن تكسو قلبي بأكمله ، كنت فقط أبحث عن حياة تستحق العيش ، ثم التقيت بها ..

كان لقائي بها كعودة فقيدٍ لأمه ، كان قدَرًا لا صدفة ، أصبحت الحياة أكثر جمالاً على الإطلاق كلما تعمّقت بتفاصيلها أكثر شدّني قلبي لها أكثر ...

شيئاً ما جذبني نحوها وكأنما يكمن في عينيها مغناطيس للجذب ، فالبعض كان يقول : كلما تعمقت بشخص ما أكثر كلما زاد احتمال بُعدك عنه إلا أنتِ ، كلما تعمّقت بتفاصيلكِ أكثر كلما جذبتِني أكثر .

كنت أسمع أخبارًا وسِيَرًا في المعهد حول :

-انظري لهما .. كان الأستاذ دائمًا يقول أنه لا يريد الحب

-انظري لهما من دون أن ينتبه لك الأستاذ

-كيف أحبَّها وهي كفيفة ؟

-يجوز أنه هو يحب فتاة هذه ، وإن كانت هي جميلة ولكن كفيفة وهذا عيب

كل هذه التعاليق التي سمعناها عندما مشينا معاً ويدينا تحتضنان بعضهما ، في حينها حزنت فتاتي كثيراً لهذه التعاليق ..

-لا أصدق ما أسمعه ، ألا يجوز للكفيف أن يحب ؟

-تعترفين بالحب إذًا ؟

-هذا الذي يهمك الآن ؟

-وما الذي يهمني سواكِ؟ فليقولوا ما يقولون ، فالكلام لن يقدم أو يؤخر، والأهم من ذلك هم يقولون ونحن نفعل ، دعكِ منهم يا حبيبتي ..

قلتُها وأنا أمسح على خدها

-اسمعني يا طوني .. أنا لا أريدك أن تتقيد بي ، أنا فتاة كفيفة وأنت تعلم جيدًا ما معنى كفيفة ، إن تزوجنا لن أستطع أن أربّي أولادنا ولن أستطيع تجهيزهم للدراسة ، كل هذه الأمور ستتولاها أنت بمفردك ..

لهذا راجع نفسك ، أنت شاب لطيف تستطيع أن تحب أي فتاة ليست كفيفة لهذا لا تجعلني أتعلق بك أكثر ثم ترحل عني وكأنك لم تحبني يومًا

-ما هذا الهراء ؟ أحببتك كأنت ورضيت بك ، ولا أريد أن أحب أحد سواك ، لن أنكر أنني جربت الحب ولكن لم أستطيع، فقلبي لم يأخذه أحد سواك أنت ، وأنا قبِلت بهذه الأمور دعكِ منها ، ودعيني أحبك أكثر ..

ودخلنا الصف

-صباح الخير يا طلاب ..

-صباح النور

-أريد أخباركم من الممكن أن يقام حفل في لندن من جديد هكذا أخبرني المدرب بعد نجاح ذلك الحفل وحقق أداءً قويًا لدى عالم الفن ، وسيتم انتقاء عازف واحد ، وهذه المرة سيأتي المدرب ليختار بنفسه ، ما عليكم سوى أن تهيؤوا أنفسكم للتدريب ، والمدرب سيأتي بداية الأسبوع القادم ..

-أستاذ وهل ستختار بيلا مرة أخرى ؟

-في الحقيقة بيلا كان أداؤها رائع جداً شدني لها ، والمدرب قال ذلك أيضاً ،والآن سنرى مجهود الجميع والمدرب هو من سيرى ذلك ..

قال سامر :

وهل سنستطيع التدرب خلال هذه الفترة الوجيزة ؟

-نعم ، لديكم فترة تدريب لنرى من سيختار ، ولا أريد أن أنسى إخباركم بأننا أنا وبيلا تمت خطبتنا

-مبارك يا أستاذ

-أستاذ هل ستستطيع القيام بدور الزوج والزوجة معًا ؟ في هذه الحالة ستتتزوج بفتاة أخرى

بدأ الجميع يضحك ، نظرت إلى بيلا كانت بعينين دامعتين

قلت : نعم سأتحمل إنها بمثابة زوجاتي الأربعة ، فمثلاً أنت يا روز عندما تتزوجين سيتزوج زوجك عليك بعد فترة فلن يتحمل فتاة بعقليّة سخيفة مثلك .

بدأ الجميع يضحك عليها بينما هي اشتعلت بنيرانها وحقدها

أعطيتهم حصة درسية وخرجوا ،ولم يبقَ سوى سامر كالعادة

أستاذ طوني ..

-تفضل يا سامر اجلس

-أريد أن يختارني المدرب

-تدرب جيداً كي يختارك ، وإن لم يختارك الآن سيختارك في وقت لاحق ، الأهم من هذا ألا تستسلم أبدًا ..

-وهل سأستطيع أن أنجح بعد الفشل ؟

-إن لم تكفّ عن المحاولة حتمًا ستنجح ، وبما أنك ستحاول هذا لا يعني أنك فاشل ، فالفاشل لا يحاول أبدًا .

-أستاذي انصت لي بالله عليك ، وُلدت في عائلة فقيرة جدًا ، وحلم والديّ أن أصبح عازفاً ماهراً ، ولم يكن لدي من هذه الموهبة سوى البيانو ، سمعت مرة : الإبداع في الموهبة يا أستاذي لا تكون إلا من المعاناة ، وأنا لا أملك سوى المعاناة ، وأيضًا لا أملك الموهبة أبدًا فكيف تنصحني بأني أصبح مبدعاً في العزف ؟

-كـــي تـــنجح بـــأي عمـــل وأي موهبـــة عليـــك أن تـــؤمن بنفســـك أولاً ، والثقـــة بـــالله ثـــم بـــالنفس ، كلمـــا زاد إيمانـــك بأنـــك ســـتنجح فحتمًا النجاح حليفك ، والعكس صحيح ..

ثانيًـــا المحاولـــة كلمـــا فشـــلت ســـتحاول وتحـــاول حتـــى تصـــل ، الاستســـلام لـــن يُجـــدي أبـــدًا ولـــن يفيـــد ، إن استســـلمت ســـتفقد ثقتـــك بنفســـك تـــدريجيًا ولـــن تحـــاول بـــأي شـــيء ، وســـترى نفسك فاشلاً غير قادر على بناء عمل جديد ، وهكذا ..

خـــذ قصـــة بـــيلّا مثـــالاً أمامـــك ، خـــذها كقصـــة أمـــل هـــي فتـــاة كفيفـــة لـــديها موهبـــة ، وأنـــت لـــديك بصـــر لـــذلك اســـتمر اســـتمر فقط لتحصل على النجاح

ذات يوم بعيد عن العالم ..

-أتعلمي يا بيلّا ..

أحـــب عينيـــك جـــدّاً ، لا أرى فيهمـــا ســـوى نفســـي ، عينـــاكِ ممتلئة بي

-كلامـــك هـــذا لا يـــدخل مســـامعي ، بـــل إنـــه يـــدخل قلبـــي .. فـــي صميمي ، ولا يُنسى أبدًا

فاللحظـــات الجميلـــة تبقـــى مخلـــدة فـــي الـــذاكرة لـــذلك تـــدوم للأبد..

لـــذلك عنـــدما نبتســـم فإننـــا نكـــون فـــي حالـــة اســـترجاع لتلـــك الذكريات ، وأحيانًا لا يبقى شيئاً نبتسم له سوى الذكريات .

-الأجمـل مـن الـذكريات هـو أن يبقـى صـاحبها معـك ، وأنـا لـن أتخلـى عنـك يـا بـيلا مهمـا حـدث ، فأنـتِ مـلاذي الوحيـد وأسرتي وأهلي وديارى

لـم يبـق لـي أهـل منـذ أن كنـت صـغيرًا ، وعشـت فـي ملجـأ لـم أر فيـه الحيـاة ، ومنـذ أن رأيتـك بـدأت أعيشـها ، لـم أحصـل على أية حنان طوال فترة حياتي ..

وأنت ؟

بدأت بيلا بالبكاء وطوني يمسح خديها ..

-أنـا مثلـك ، ولكـن بقينـا أنـا ووالـدتي علـى قيـد الحيـاة وفقـدتُ والـدي ، المـرء الـذي يفقـد والـده يفقـد الأمـان فـي حياتـه ، وهـا أنـا أصـبحت ضـريرة أشـتهي البصـر كـي أراك ، لا أريـد أن أبصرك بقلبي ، أريد أن أراك بعينيّ ..

-لا تبـكِ يـا حبيبتـي ، فلكـل مشـكلة حـل ، وسـآخذك بقلبـي إلـى الطبيـب ، ولـدي مفاجـأة لـكِ أيضًـا ، ولكـن هـذه الأمـور سنحلّها بعد حفل لندن الكبير

-ما هي المفاجأة ؟

-دعيها تكون مفاجأة ، ستكون أجمل بكثير .

-حسـنًا يـا حبيبـي ، ويجـب علـيّ أن أتمـرّن لأجـل الحفـل ، أريد أن أرى من سيختار المدرب

طوني وهو يقترب منها :

أريـد رؤيتـك أمـام البيـانو علـى المسـرح .. هـل سـتدعيني أراكِ مجددًا ؟

بدأت تضحك وتقول :

لـدي صـور مـن تلـك الحفلـة ، وبيـدي جـائزة ، تحـب أن تراها؟

-تسخرين إذاً ، وأنا أريد رؤيتك من أفضل الناس

- أعدك بأنك ستراني ..

طوني وهو يمسك بيديها :

أداؤك علـى المسـرح تلـك المـرة خطـف قلـوب جميـع القاعـة ، وأولهم قلبي

-انظر إليّ جيدًا ، أنا شخص لا تليق به الخسارة

-لهذا أحببتك.

الأنثـى القويّـة لا يليـق بهـا الخسـارة أبـدًا ، فـالأنثى القويّـة تـربح دائمًـا ولـو بعـد حـين ، وحتـى فـي الحـب إن لـم تنـتقم لنفسـها فسـوف تنـتقم بنجاحهـا ، فهـذه هـي فِطرتهـا تحـب القوة....

الأنثـــى المتفائلـــة والحالِمـــة هـــي كشـــعاع الشّـــمس تمامًـــا يحبّوهـــا جميـــع الرجـــال ، يحبّوهـــا كـــي يُطفؤُوهـــا ، ومـــن ثـــم يغادروهـــا كلَيلٍ انطفأت شمسه ..

والقويّـــة مـــنهم تحـــاول إعـــادة نفســـها لنفســـها وتـــنجح بـــذلك الأمر،

وترفـــع مـــن قيمـــة نفســـها وتـــنجح ، وتعـــود كمـــا كانـــت ســـابقًا وأقوى

عند لحظة التدريب..

وصل المدرّب ..

قالها أحد الطّلاب

-صباح الخير

-صباح النور أستاذ علي

المدرب بابتسامة :

مبارك الخطوبة أستاذ طوني ، ومبارك يا آنسة بيلا

-شكرًا لك من أعماق القلب

-سأختار اليوم على ذوقي ، وحسب العزف الأجمل ..

-تفضل أستاذ لنبدأ

-ســـنبدأ مـــن عنـــد خطيبتـــك ، تفضـــلي ، فمنـــذ ذلـــك الحفـــل وعزفها لم يغب عن مسامعي

تقدمت بيلا نحو البيانو ممسكًا بيديها طوني

-تفضـــلي يـــا حبيبتـــي ، تـــذكري أنـــي معـــك دائمًـــا ، تـــذكري كيـــف كنتِ في الحفل ، تذكري ذلك الأداء الرائع

-لن أخيّب ظنك بي

ربّت طوني على كتفها :

أنا معك وبجانبك ، تفضلي

الأستاذ علي : واحد ، اثنان ، ثلاثة ..

وبـــدأت بـــيلا بـــالعزف وكنـــتُ أنـــا بجانبهـــا ،والجميـــع ينظـــر لهـــا ، وهي كعادتها تسرق الأضواء بإطلالتها المميزة ..

شـــيئًا مـــا عثّـــر طريقهـــا ، وتـــداخل بـــين أوتـــار أصـــابعها ، وكأنها توترت ..

ما الذي وتّرها ؟

هل لأني كنت واقفًا بجانبها ؟

أم لأنها وعدتني ألّا تخيب ظني بها وخيبت؟

أسئلة غريبة تدور برأسي ..

أهو الحب ؟

أو الوعد؟

وبـــالرغم أنـــي أكـــره الوعـــود فـــإني كنـــت أعلـــم أن كـــل الوعـــود كاذبة

بعد تلك اللحظة لم أعد أثق بالوعود

الجميع قابل أن يخون ، لا أحد ملاك ، لا أحد قدّيس

قبـــل أن أعتـــرف بحبّـــي لهـــا كانـــت مـــاهرة جـــداً ، فمـــا الـــذي تغير؟

كانت أفكاراً شيطانية تداعب رأسي

لا أحب رؤية فشلها ، أحب أن تكون الأولى في كل شيء

ربمـــا عنـــدما يصـــاب المـــرء بلعنـــة الحـــب تضـــعف موهبتـــه ، ويقل نجاحه

وإذ بصوت المدرب يقطع حبل الأفكار هذه ..

الأستاذ علي : توقفي توقفي

-أعتذر ، ولكن لست أدري ما الذي حصل

قال ممازحًا :

كل هذا بسبب الحب ، لأن الأستاذ طوني بجانبك ارتبكتِ

-لا هو مشجع لي ، وأكبر داعم

أنهضْتُ بيلا وأخذت بها إلى مكتبي ..

أمسكت بيدي وقالت باكية :

أعتذر .. أعتذر ، لقد خيّبتُ ظنك بي ، لقد فشلت يا حبيبي

-الفاشل هو المستسلم ، ولا أريدك أن تستسلمي أبدًا

-أنت دائمًا تقف بجانبي وتدعمني ، وأنا لا استحق ذلك

-لا تتكلمي هكذا عن نفسك ، ستنجحي في المرات القادمة ، ولكن أرجوكِ لا تتحدثي هكذا ، أنتِ قوية جداً ، ولا تجلدي ذاتك بعد الآن ..

اجلسي هنا يا حبيبتي ، سأكمل معهم ومن ثم أعود لك ..

خرجتُ من المكتب ، وشعور غريب ينتابني لأول مرة أراها بهذا الضعف وكأن غرورها كُسر ، ربما عدم النجاح من أول مرة يُودي بالشخص إلى الإحباط والضعف لفترة من الوقت ، ومن ثم يعود هذا الشخص بعزيمة وكأنه لا يقبل بالهزيمة ..

سأبقى معها حتى تعود أقوى من قبل ، أحبها وإن كانت بأسوأ حالاتها ..

وصلتُ إلى صالة التدريب والجميع ينظر لي باستغراب ..

الأستاذ علي : ماذا حدث؟

-لا شيء ستحاول في المرة القادمة إن شاء الله ، ألم تبدؤوا بعد ؟

-ننتظرك فأنت الأستاذ

-شكرًا لكم من أجل الانتظار

-تفضل أنت أيها الشاب ، ما اسمك ؟

-سامر

-تفضل يا سامر

جلس سامر على الكرسي بكل ثقة ..

كنتُ أرى كلامي له تلك المرة في عينيه ، نعم إنهما الثقة بالله وبالنفس هما أساس النجاح ..

بدأ سامر يُخرج كل معاناته عبر أصابعه ثم يضغط بهما على أوتار الآلة ، وكأنه يريد التخلص من تلك المعاناة عبر أصابعه ، ولو كنتُ أنا مدرب الحفل لاخترته ..

وانتهى العزف بالتصفيق له واختياره ، وكان حُسن الاختيار هو اختياره فعلاً ..

خرجت من باب الصالة وإذ بصوته يناديني ..

أستاذ طوني ..

-تفضل يا سامر

-أريد أن أشكرك على كل شيء

-أنا لم أفعل شيئًا إنه واجبي ، وفي الواقع كان عزفك يشد أي مسمع

-تعبت كثيرًا من أجل التدريب ، وخصوصًا بعد سماع نصائحك

-التعب يزول نهائيًا ، والنتيجة تبقى
شيئًا ما كان ينقصني خلال تلك الدقائق ..
تنقصـــني بـــيلا ، والـــروح تشـــتاق لتوءمهـــا ، ويـــا لـــكِ مـــن روح تعذّب توءمها ..

وصلتُ إلى المكتب ، وكانت المفاجأة ..
لم أجدها أبدًا ، أين هي ؟
وهل حصل لها مكروه ؟
هي كفيفة كيف يمكنها الخروج دون مساعدة ؟
كانـــت الأســـئلة تـــدور فـــي رأســـي ومـــا مـــن أي إجابـــة أو تفسير...

خرجـت مـن المكتـب كالطفـل الـذي فَقَـدَ أمـه ، أبحـث عنهـا فـي كل مكان ، ما من جدوى ، فقد ضاعت هباءً منثورًا
وبرغم أن المكان ممتلئٌ بالبشر إلّا أنه فارغٌ بدونها ..
لا شـــيء يخصّـــها معـــي ، وحتـــى رقـــم هـــاتف أمهـــا لـــيس معـــي ، وعنوان بيتها لا أعرفه ..
كانـــت لا تعطينـــي أي شـــيء يخصـــها ، ولا أحمـــل منهـــا ســـوى عطرهـــا عنـــدما لامســـت يـــدها يـــدي وذكراهـــا معـــي ، بينمـــا كـــان كل شيء يخصّني معها وأولهم قلبي ..

خرجتُ من المعهد كالمجنون ، وركبت السيارة أبحث عنها في جميع الأماكن ، وحتى هاتفها مغلق ..

هذه الأماكن فارغة ، فارغة تمامًا

أعاني الآن من مخاض الفقد ، فقد أخبرتها سابقًا أن لدي فوبيا الفقد ، وكأنها الآن تعاقبني ..

العقاب بالغياب ممن نحب أصعب من العقاب بالضرب ..

جلدتُ ذاتي عندما أخبرتها أنني أخاف من الفقد فجأة

أحيانًا عندما نخبر من نحب عن الأشياء التي نخافها يعاقبوننا بها ، هذه العبارة سمعتها من أكثر من صديق لي خانه الحب..

جادت هي لعبة الاختفاء المفاجئ ، وجادت في كسر قلبي..

أنا الآن يتيم تمامًا ببعدي عنها ، وهي لم تعتبرني أهل لها يومًا .

بدأتُ أجول في شوارع لندن لعلي أجدها ، ولا أنسى ذلك اليوم عندما وجدتها ، لم أنسَ كيف كانت تجلس وتعزف ، تبتسم وتطير في أحلامها ، كانت تطير أماني كالفراشة حرّة طليقة تعطي منظرًا طبيعيّا خلّابًا ، لم أنسَ مصافحتها لي ولم أنسَ عطرها الذي بقيت رائحته معشعشة داخل يدي ، وربما هذه الرائحة دخلت إلى عروقي كي يبقى أثرها منقوشًا بداخلي ، كلما اشتقتُها استنشقتُ عطرها ..

أين أنتِ ؟

دعيني أقف على أطلالك أبكي اشتياقًا

دعيني أعانقك ..

دعي قلبي يعود لي ، ودعيني لنفسي

أشعر بأنني بعيد جدًا عن وطني ، دعيني أدخل قلبك كي أشعر بانتمائي لكِ ، وإني لا اريد الانتماء لأحد إلّاكِ

أخاف أن يفنى عمري بالبحث عنكِ

أخاف أن تأخذي أولادك إلى قبري مغرورة بأن هناك من مات حبًّا وبحثًا عنك..

لا تتكبري وعودي ، وتعاطفي مع قلبي المسكين ..

كوني قاضيةً عادلة ، واحكمي عليّ بالإنصاف

أو دعيني آخذ قلبي منكِ وأرحل

وكوني على علمٍ بأني سأمنع نفسي من رؤيتك في الحلم

وإن لم أستطع فعل ذلك سأغترب عن النوم

كما فعلتِ أنتِ واغتربتِ عني

عودي لي من ذلك المنفى البعيد

فيا لقلبك القاسي والذي لم يهوَ قلبي يومًا ، وكما كنتُ أشعر بأنك كنتِ تحبي حبي لك ، ولم تحبيني ..

أسبوع كامل من هذا الهجر المفاجئ ، وأنا لم أدرِ عنكِ شيئاً

أسبوع لم أنم منه سوى سبع ساعات ..

أسبوع لم تصل لي منكِ أي رسالة

أسبوع لم أذهب إلى المعهد ..

وما فائدة الذهاب إن لم تكوني به ؟

إن ذهبت لن ارَ أي أحد هناك ، أنتِ كنتِ جميعهم ..

ولكن ما حال قلبك هذا ؟

لم أكبر سوى سبعة أعوام في هذا الأسبوع المظلم

وخلال هذا الأسبوع لم أرَ النهار أبدًا ، كان الليل يطغي بظلامه وهيبته ، لم يكن يغطي المدينة فقط ، فقد كان يغطي قلبي وداخلي ..

ليل حالك قمره ضائع في أصقاع الأرض ..

كنتُ أريد شيئًا منكِ فقط لدرجة أنني حاولتُ تقليد عزفك ولم أستطع ، كان كل شيء منكِ مختلف ..

كنت أتفقد هاتفي كثيرًا لعلي أجد أي رسالة تائهة منك ..

تخيلي يا فقيدتي كنتُ أبحث في الرسائل القديمة ، وكنت أقنع نفسي بأن هناك واحدة منهم هي منكِ أرسلتها لي منذ أول غيابك ، والجميع يتصل بي من المعهد وأخبرتهم أني أخذت إجازة أسبوعين ، وحتى سامر أخبرني أن الحفلة ستقام بعد شهر .

ربما عرفوا بقصة غيابك لذلك قاموا بتأجيل موعد الحفل..

لم أصدق بأن أنثى ستفعل بي كل هذا

كنت أظن نفسي أني أنا من أضحك على النساء

ولكن أنت من ضحكتِ عليّ
يا فقيدتي اكسري كبريائك وتعاطفي معي
تبًّا للتنائي
إني لا أتذكّركِ إلا عند
كل نبضة ، كل رمقة ، وكل نَفَس
عند هبوب الرياح ، وعند تساقط المطر
عند طلوع الشمس ، وعند بزوغ القمر
باختصار أكثر : ما زلتٍ عالقة في الذاكرة ..

والآن أصبحنا في نهاية شهر سبتمبر الطقس بارد جدّاً ..
والسماء تمطر بغزارة ، أما زلتِ تحبّين المطر ؟
أما زالت ذكرياتك عالقة برائحة المطر كرائحتك ؟
أما زلتِ تحبين الرقص تحت المطر ؟
مازلتُ أتذكرعندما أمسكت بيدك ..

حينها فقدتُ ذاكرتي تمامًا ولا أذكر سوى أن يدي أزهرت وردًا ، وخُلّد عطرك في يدي..
وجعلتِ من يدي فصلاً ربيعياً يمطِرُ أزهارًا ، ومن قلبي فصل الخريف ..
وبعد مرور عشرة أيام دون أي أثر أو رسالة منكِ قررت السفر إلى الريف حيث يقطن صديقي هناك ..
لعلي إن سافرت أنساكِ ..

ولعلـــي أنســـى مـــرارة الفقـــدان ، حيـــث ســـأرحل فتـــرة قصـــيرة وأعود إلى لندن من أجل الحفل الكبير ومن أجل سامر ..

سأغادر إلى حيث يسكن صديقي سعيد هناك ..

حاله يشبه حالي ، فقد خانه الحب ..

بعـــد أن أحـــب دانـــيلا فـــي فتـــرة المراهقـــة ودرســـا معًـــا فـــي كليّـــة الإعلام وتخرّجا معًا ، تقدّم لخطبتها ..

وبعـــد فتـــرة قـــرر أن يكتـــب لهـــا بيتـــه باســـمها ، وبموافقـــة ســـريعة بادرت هي الأخرى ..

وقام بشراء سيارة لها أيضًا ..

وبعـــد حصـــولها علـــى هـــذه الممتلكـــات خانتـــه مـــع صـــديقه و رمت سعيد بعيدًا عنها ..

وتزوجت بصديقنا ..

لـــم يعـــد يثـــق بـــأي أحـــد وحتـــى بنفســـه .. تـــرك كـــل شـــيء خلـــف ظهره وسافر للريف ..

وها أنا اليوم أتجهز للسفر إليه ..

لم أجد شفائي من ضالّتي إلا بالسفر ..

في الريف

وصـــلتُ للريـــف .. كنـــتُ أعـــرف تمامًـــا مكـــان المنـــزل فقـــد زرته من قبل ..

طرقت على الباب .. وصوت أم كلثوم يصدرمن الداخل

فتح سعيد الباب فجأة ..

ســـعيد : وهـــل تظـــن أنـــي سأنســـى ضـــرباتك علـــى البـــاب أيهـــا الشقي

ســـعيد شـــاب لبنـــاني الجنســـية .. طويـــل القامـــة وأبـــيض البشـــرة، شعره كيرلي ، وعيناه خضراوتان .

دلفتُ إليه أعانقه بشدة

- اشتقت لك كثيرًا

-لـــيس أكثـــر منـــي .. لا تقـــل لـــي يـــا صـــديقي أنـــك جئـــت إلـــى الريـــف لأنـــك مخـــذول ، فبعـــد الاختبـــار وجـــدت أن هـــذا الريـــف يسمى ريف المخذولين

بدأنا نضحك

-والله يا صاحبي صَدِقَ قولك

نظر لي باستغراب وقال :

-صديقي وأخي طوني أحب وخُذل ؟

-لقد جئتك بدون قلبي

قال غامزًا بعينه :

أين هو؟

-لقد بقي معها

-اجلـــس اجلـــس هنـــا ريثمـــا أحضـــر الشـــاي وأعـــود إليـــك لتخبرني بكل شيء

-لديك خمس دقائق إن لم تاتِ سأذهب..

-لحظة كي أحضر نفسي .. عفوًا عفوًا كي أحضر السكر

-ستبقى هكذا طوال حياتك ثقيل الدم

-هيا أخبرني.. كيف أحببت؟

-رأيتها معي في المعهد ، وكانت طالبة عندي

أحببتهـــا جـــدًا ، وفجـــأة اختفـــت ، بقيـــتْ حـــوالي عشـــرة أيـــام دون تواصـــل معـــي ، وأنـــا لا أملـــك شـــيئاً منهـــا ســـوى رقمهـــا ، وبيتهـــا مهجور تمامًا

-قلت لي أنك أحببتها ، ولكن هي أحبّتك؟

-لا أعـــرف أنـــا أحببتهـــا بســـرعة ، وكنـــت أحـــاول أن أخبرهـــا بـــذلك ولكنهـــا تتهـــرب كثيـــرًا ، وعنـــدما تقـــدّمت بخطبتهـــا علـــى المسرح وافقت بسرعة

-أمر محير للغاية ، وما سبب هذا الاختفاء ؟

-صـــدقني لا أعـــرف ، وحتـــى أنـــي لـــم أخطـــئ معهـــا بـــأي حرف؟

-وهـــل حاولـــت البحـــث عنهـــا فـــي جميـــع الأمـــاكن أو الاتصـــال بها؟

-فعلت كل شيء ، ولكن بدون جدوى

-وهل اتصلت بأحد من أهلها ؟

-لا أملك رقم أي أحد منهم ، ولكن هي لديها حالة خاصة

-لم أفهم ماذا تقصد؟

-الفتاة كفيفة ، ولحظة الاختفاء كانت من المعهد

-هل يعقل أنها خُطفت؟

-لا مستحيل المعهد مراقب بالكاميرات

-ولم يراها أي أحد تخرج ؟

-لا

-أقـــول أنهـــا خُطفـــت ، فالفتـــاة كفيفـــة والاختفـــاء فجـــأة مـــن مكـــان عام

دون أن يراهـــا أحـــد الاحتمـــال الأكبـــر هـــو الخطـــف ، أو أن الفتاة تكذب عليك

-هـــي لا تكـــذب ، واحتمـــال الخطـــف هـــذا أضـــعف احتمـــال ممكن..

بدأنا نبحث عن حلول ولكن دون فائدة

-أتعلم ماذا ؟

-قل

-الاختفاء هذا يجعلنا نتعلق بالشخص أكتر

-ماذا تقصد؟

-سأقول

عنـــدما يبتعـــد فجـــأة الشـــخص الـــذي نحبـــه مـــن أعمـــاق قلوبنـــا ومن دون سبب ستزيد نسبة تفكيرنا به

أيعقل أنها لم تكتفِ بي ؟

أو أنها التقت بشاب أخر؟

أو كـــأنهن تطلـــب منـــي أن أغـــادر حياتهـــا ، ولكنهـــا لا تســـتطيع أن تخبرني بذلك؟

هذه الأسئلة تدور في رأسي ، ولم أجد أي إجابة

فقد كنت صادقًا معها لأبعد الحدود..

-ولكن يا صديقي شخص كهذا في حياتك لا يستحقك أبدًا

كـــل هـــذه الأســـئلة التـــي فـــي رأســـك لـــن تجـــد أي إجابـــة لهـــا إلا عندها

وأين عندها؟ لقد ذهبت

حتى وإن عادت تتصل بك إياك والعودة

-حسنًا هكذا فكرت

- طوني عندما تتصل به محبوبته أتعلم ماذا ستقول لها ؟

-ماذا؟

-لـــو لـــم تتصـــلي لكنـــتُ بحثـــت عنـــك فـــي أصـــقاع الأرض ووجدتك

-هذا مستحيل ، اتركني وشأني يا صديقي

-لقد جربت إحساسك تمامًا عندما فقدت دانيلا ، الحب في هذا الوقت كذبة ، وإن كان حبًا حقًا فهو لمصلحة ، وهذه الفتاة أخذت مصلحتها منك وغدت في حياتها

-وما مصلحتها مني ؟

-أصابها جفاف عاطفي ، وبعد ما ملأت هالجفاف قررت الذهاب

-مستحيل أن تكون كذلك

أشعل سعيد سيكارته وقال :

- أنا خبير بالنساء، وليس لدي أي ذرة ثقة بهن ، فجميعهن خائنات

-ولكن لم أكتب لها شيئاً باسمها حتى ترحل كما فعلت أنت

-أنا تعلمت ، والحب لدي مات

وقف طوني وقال :

-أريد أن أمشي قليلاً

-تأخدني معك ؟

-لا لا ابقَ مكانك لا تتحرك ، والله إن أخذتك معي لن أعود إلى هنا مجددًا أتعرف لماذا ؟

-لماذا ؟

-لأني أكون قد انتحرت

-سامحك الله يا صاحبي .

خرجت أتنفس قليلاً ، فحديث سعيد جعلني أشكّ كثيراً بمن حولي ..

ويقولون : لا أحد يشعر بك سوى اثنين

الأول يحبك ، والثاني مرّ بنفس تجربتك

ولكن سعيد وصل إلى آخر مراحل اللامبالاة وقلة الثقة بالفتيات ..

ولكني لم أشعر أنه يشعر بي

وأنا أقول : لا أحد يشعر بك سوى نفسك ..

كنتُ أتأمل في البعيد أترقّب الفقيد لعلها هنا ..

أرى حضورها الجذاب أمامي تمامًا ، وحضورها الغيابي يمتّع ناظري ويؤلم قلبي جدًا .

رحيلها الغامض هذا أنهى فكرة الأبدية لدي ، والإنسان مجرد محطة عابرة ، ولكن ما الفائدة إن كانت عالقة بي؟

أرى شعرها الذهبي في سنابل القمح ، وعيناها الخضراوتان في أعشاب البساتين ، وطولها في شجرة النخيل ، وملامحها في الحجارة ، هي أمامي الآن تأبى الرحيل ..

كيف للبعد أن يزيد من نبضات الحب ؟

كنت أحاول أن أطوي صفحات ذكرياتنا إلا أنني وجدت نفسي أفشل أمام حضورها الغيابي اللاذع ..

سألتها مرة : هل ذُقتِ مرارة فقدان الحبيب؟

كان جوابها غامض ؛ لأنها قالت لي لم تحب من قبل ..

أجابتني : حتى وإن كنت أحب فأنا أخاف من فقدان نفسي أكثر من فقدان من أحب ..

وعندما سألتها مرة عن سبب حبها للمطر

قالت : شيئان أقدّسهما فقط هما العقل الناضج والمطر ..

لا آخد الحكمة إلا من عقل ناضج هرِم ، والمطر هو أصدق وأطهر شيء على الإطلاق ..

وأعترف الآن إن رأيتها مرة أخرى سأقدّم لها أيّ شيء كي تبقى معي ، فالرجل لا ينسى امرأة أحبها ذات يوم ..

ورغم أن الحب لا يباع ، هو سمة فطرية خارجة عن المنطق واللاوعي كنت مستعدًا تمامًا بأن أشتري حبها ..

وحقيقة الأمر أقذر شيء على الإطلاق هو الحب ، فعندما يهوى الإنسان إنسانًا يتجرّد من المنطق كليًا ، إلا أنني أحب بعقلي لا بقلبي ..

وأصدق حب هو الحب بالعقل لأنك ستحبه بحاسة المنطق والوعي وبعمق الشعور ، فلن تتخلّ عن تفكيرك المنطقي أبدًا..

أعـــرف أن كـــل تلـــك المشـــاعر والأفكـــار كانـــت متناقضـــة بالنسبة لي

لـــذا أنـــا الآن متـــألم جـــدًا ، كنـــت أظـــن أن جميـــع النســـاء سواســـية ، إلا أن هذه الفتاة استثنائية وعقلانية ، وكدت أجن بها

لـــم أرَ فتـــاة مـــن قبـــل لا تتبـــع قلبهـــا وتقـــدّس عقلهـــا وتســـير علـــى منهجيته وحكمته ، امرأة متجردة من العواطف

وجميعهم هي ..

كانـــت تقـــول لـــي : أنـــا لا أهـــوى اتبـــاع طريـــق القلـــب فهـــو لا يهوى بنا إلا لقاع البؤس والخذلان ..

فمـــا أجملـــك أيهـــا العقـــل عنـــدما نفكـــر بـــك ، فإنـــك بالنســـبة لـــي طوق النجاة وحسب..

عنـــدما جئـــت لأول مـــرة إلـــى لنـــدن رميـــتُ خلـــف ظهـــري كـــلّ شيء

رميـــت لعنـــة الماضـــي بعيـــدًا عنـــي ، وبـــدأت بالعمـــل علـــى اســـترجاع نفســـي فـــي حاضـــري ، ثـــم جـــاءت هـــذه الفتـــاة لتضـــفي عليّ طلاسم وتعويذات مستقبلي فأتاهتني ثم نأت ..

لا أريـــد العـــودة إلـــى الماضـــي فأصـــاب باللعنـــة ، ولا أريـــد الذهاب إلى المستقبل فتحلّ عليّ طلاسم غير مفهومة ..

أنا الآن في منتصف كل شيء ..

دعينـــي يـــا بـــيلا أمـــلأ طريقـــي نحـــوك ، دعـــي طرقـــي تلتـــقِ بطرقك

دعي واقعي يصطدم بواقعك

خذيني إلى عالمك وانسيني هناك ..
أحبيني بعقلك وقدسيني كما أقدّسك

أحبيني كما تحبي المطر ، وسأرقص معك
فأنا صادق أيضًا لا أجيد لعبة الكذب ...
إني أقدّس قصائد الحب ، ومن ثم أقدسك أنتِ
وثالثهما أقدّس مقطوعاتي التي عزفتها لكِ في ذلك الزمن
زمن التقينا به وأحببتني بعقلك
وراقصـــتك .. وركضـــنا تحـــت المطـــر وســـرينا أحمـــل لـــك النجوم
فلم يعجبكِ سوى القمر
فركبنا شهابًا لعلي أوصلكِ للقمر
وعندما وصلنا إليه رميتني بأجنحتك إلى الأرض
وغادرتِني لصدقي معك
والآن أقف تحت ذلك القمر ، طلّي عليّ بوجهك
دعيني أراكِ ..

كـم مـن الوقـت يمـرّ إلا أنـتِ لـم تمـرّي مـن داخلـي ، يقولـون : أن البعيـد عـن العـين بعيـد عـن القلـب ، هـذه مـن أكثـر المقولات التي لا أصدّقها على الإطلاق ..

الوقت يزيد بالبعد عنكِ ، والحب بقلبي يزيد تجاهك ..

لعنـة حبـك أصـابتني لا تريـد الـذهاب ، وأعتـرف أنـي حاولـت أن أكرهك عندما حاول سامر إفساد حبي لك ..

ولكن تخيلي يا فقيدتي أن الكره لم يزِد إلا حبّاً لكِ

عن أي كره أتحدث وسهامك تطعن حبًا في قلبي

أشفق على نفسي عندما أراها تحبّك كل هذا الحب

وأشفق على قلبي المسكين عندما وقع بك

السهر والمرض يداهماني ..

أصبحت عيناي مريضتان بفقر اللقاء

تحتاجانِ إلى عينيكِ

وقلبي يعاني من مخاض الفقد

وعقلي مصابٌ بوَرم الذكريات

ذكرياتك أنتِ ..

ويداي منذ أن أفلتا يديكِ أصابهما الخريف

تتساقط أوراقه

ويحتاجان إلى ربيع يديكِ

عروق يديّ يا فقيدتي تحنّ إلى عروق يديكِ

وبداخلي صحراء تحتاج إلى أمطارك
ألم تحين غيومك بالقدوم ؟
أنا مريض جدًا ، لا أُشفى إلا بلقائك ..

قررت العودة إلى لندن ، فحتى السفر لم يجعلني أنساكِ..
وكأن سراب طيورك يُحلّق في سمائي ويلاحقني في غربتي ، وكأنه يريد معاتبتي إن بدأتْ ذاكرتي بنسيانك ..
الغربة لا تكون فقط بالبُعد عن الوطن ، وتكون أيضًا بالبُعد عمّن نحب ..
وعند وصولي للندن ووجدتها فارغة تمامًا ، إنها مدينة الضباب
الجو الأقرب لقلبي ولذاتي
كنتُ غريبًا بين هؤلاء الغرباء ، وكنت الأكثر غرابة بينهم
وإنْ صحّ قولي أنا الأكثر ضياعًا ، والأقل عزيمةً
أنا الذي إن غاب لا أحد يشعر به
أليس هذا رائعًا ؟
أن تكون أنت والغياب واحد ؟
كحجرةٍ مرميّة ومنسيّة بجوار الطريق
تشعر بالبرد ، ولا أحد يراها حتى

كم كانت صعبة الوِحدة

تسير بمفردك ، وكل الوجوه المارّة خالية من التعابير
تعابير ؟

التعابير تتأجج في الداخل ، وتتجمّد في الوجه
ولكني كنت أبحث عن تعبير واحد في داخلي
ولم أستطع إيجاده ، والفرق بيني وبين العابرين
أن تعابير وجهي نفسها تمامًا في داخلي
جبل جليدي في داخلي يطفو على سطح وجهي ..

الناس تعيش في اليوم شقّين : ليل ونهار
إلا أنا أعيش الليل في اليوم
منذ أن غابت مازلت شمسي نائمة وخامدة
الليل يغطّي دُجاه في أعماقي ، ينتظر النّور
ينتظرها هي
فهل من لقاء بعد الانتظار ؟
وما يجعلني أفقد صوابي أنها غيّرت مكان الإقامة
عندما كنت أوصلها لمنزلها وبعد اختفائها ذهبت لمنزلها ، فقد غيّروا مكان الإقامة
إلى أين ؟

غبّرت إقامتها إلى قلبي

فقد قلّت فرص اللقاء وزاد احتمال الجنون ..

وصلتني رسالة من سامر ..

كيف حالك يا أستاذي ، حفل لندن الكبير بعد يومين

وأنا بانتظارك ..

في الحقيقة نسيت موعد الحفل بدقّة ..

مع أن ذاكرتي لا تخون وخانت

فرحت كثيرًا لفرصة كهذه لسامر ، فرصة ذهبية للإقلاع على طريق حلمه ، وسفر شهرته

وأعترف بأني لم أتوقعه أن يحظى بفرصة كهذه ، وخصوصًا بفترة تطوير ذاته وإمكانيات عزفه ..

أظن أن حزنه أليم جدًا حتى تمكّن من الإبداع بفترة وجيزة

وإني لا أرى مبدعًا بمعاناة صغيرة ومحدودة ..

كلما ازداد الألم ازداد الإبداع

هذه حقيقة لا ينكرها المبدعون .

بدأتُ أجهز نفسي للحفل ..

طقم أبيض وقميص أسود ، وحذاء أسود

كنت أودّ أن أرتدي طقمًا أسود اللون ، وذلك أعلانًا لحدادي على حبيبتي التي اختفت فجأة

ولكن في الوقت الراهن أعتقد أن سامر أهم بكثير من التفكير بتلك التفاهات ..

فحتى الألوان لم تسلَم مني ..

رحيــل أحبّتــي جعلنــي أفقــد الحــس الفكــاهي لــدي ، وبالنســبة لــي هذا أعظم وأحزن فقد يضيع مني

ركبت السيارة وتوجهت للمسرح الكبير ..

اشتقنا لك يا أستاذي العظيم ..

قالها سامر مُعلنًا ترحيبه بي

-وأنا اشتقت لك يا أروع عازف ، فكيف همتك ؟

-متوتر قليلاً

-الرجــل لا يتــوتر ، وإيــاك أن تتــوتر أو تخــاف مــن شــيء قبــل حدوثه ..

-ســأفعلها يــا أســتاذي .. ولكــن مــالي أرى كــل هــذا الجمــال أمامي؟

-عيناك الجميلتان لذلك رأيتني جميلاً ..

-بل عيناي جميلتان برؤيتك ، ولكن أخبرني أين بيلا ؟

ألم تأتِ معك ؟

-لا ليســت معــي ولــم أكلمهــا أساسًــا ، فقــد انشــغلت بنفســي قلــيلاً ، ولا أعلم إن كانت ستأتِ للحفل ..

أريد أن أسألك وجاوبني بكل صدق يا سامر

-أبشر يا أستاذي أبشر

-ألم تأتِ بيلا إلى المعهد طوال فترة غيابي ؟

-نعم أتت إلى المعهد ، ولكن يا أستاذ عدم المؤاخذة إن كانت هي خطيبتك لم تخبرك بنفسها ؟

-كنت في إجازة ، وهي فترة ترفيه عن نفسي ، ولم أكلم أحد حتى هي ، فهل داومتْ جميع الأيام التي غبتُ فيها ؟

-منذ أسبوع أتت إلى المعهد وفي الفترة التي مضت غابت، وعندما سألناها عن السبب قالت أنها انتقلت إلى بيت جديد مع والدتها ، ولكن عندما علمتْ بأنك في إجازة غابت ..

-ولم تخبركم عن سبب انتقالها لمنزل جديد ؟

-لا يا أستاذي اكتفت بتلك الكلمات ..

-الآن لا عليك منها ، هيا العازفون سيخرجون هيا ، أنا سأخرج وسأنتظر مع الجميع في الصالة

كن واثقًا من نفسك ولا تهب أحد ..

-هل أنا في حالة جيدة ؟

-حالتك هذه جذابة ، ولكن لا تخف ، وتذكر أنك اليوم في فرصة مميزة لم تتوقعها يومًا ، والتي جاءت بفضل الله ثم نفسك

-معك حق الحمد والشكر لله دائمًا وأبدًا ..

خرجـــتُ مـــن الغرفـــة متجهًـــا إلـــى الصـــالة يبـــدو أن جميـــع المدعوين كانوا في الصالة ولم يبقَ إلا أنا ...

خرجْـــتُ مشوشًـــا غارقًـــا فـــي أفكـــاري ، متعمّقًـــا بمـــا قالـــه لـــي سامر

وصـــرت أفكّـــر إن بقيـــتُ فـــي لنـــدن ورأتنـــي بـــيلا هـــل كانـــت ستغيب عن المعهد أو أنها حجة ؟

صارت الأفكار تتأجج في داخلي

والحرائق تزيد في صدري

زاد هـــذا الحريـــق عنـــدما وصـــلتُ للصـــالة ورأيـــت ذلـــك المشهد..

رأيـــت بـــيلا تجلـــس فـــي نفـــس المكـــان الـــذي جلســـتُ بـــه عنـــدما كانت هي على المسرح ..

لم أصدّق عيناي أبدًا

ترتـــدي فســـتانًا أســـود ويبـــدو لـــي مفتـــوح الظهـــر وشـــعرها مرفوع ، وتضعْ عليه خيوطًا صغيرة مزينة بالورد ..

لم تتغير إطلالتها الجذابة أبدًا

كل صفات الجمال فيها ، بدأتْ نبضات قلبي تتزايد

ماذا سأقول إن رأتني وتواجهنا ؟

أنا سأقول أم هي ؟

من سيبرر لعبة الاختفاء ؟ كلانا اختفى من حياة الآخر

ولكن القاعة امتلأت بالناس

ولـم يبـقَ سـوى مقعَـدًا خلـف بـيلا وأمهـا ، ولسـوء الحـظ علـيّ أن أمر من أمامهما ..

قررت المرور دون أن ألتفت لأي أحد منهم

فعنـدما اختفـت مـن حيـاتي لـم تلتفـت لـي ، وقـررت أن أضـعها نفس الشعور ..

مشيتُ أمامهما بكل ثقة ولم ألتفت لهما

وكأنني لم أراهما أبدًا ، وإذ بصوت خلفي

-طوني أريد التحدث معك

توقّفتُ ولم ألتفت ، هذا صوتها الذي أزاد نبضات قلبي ..

اسمي من بين شفتيها يعطيه لحنًا يشبهها تمامًا

قررت أن ألتفت نحوها وفعلت ..

تقدّمت بخطوات قليلة نحوها بينما هي واقفة مكانها وقالت:

لقـد عرفتـك مـن رائحـة عطـرك التـي لـم تغيرهـا بعـد أن أخبرتك بأنها المفضّلة لدي ..

-عفوًا ؟

-طوني أريد أن نتحدث

-لا أريـد التحـدث معـك أبـدًا ، حـديثي معـك كـان قبـل الاختفاء، أما الآن لم يبقَ أي كلام نقوله ..

-ولكن لدي الكثير من الكلام عليّ أن أقوله لك ، ألا تريد السماع ؟

-إذًا نتحدث عند انتهاء الحفل

مشيت من أمامها ولكن نبضات قلبي لا أشعر بها من شدّة الخفقان ..

جلست خلفها ، ولكن الشيء الوحيد الذي أفكر به هو كيف استطعت تأملها بعد كل هذا الغياب ؟

وماذا ستبرر لي ؟

لم أتوقع بعد كل تفكيري بها وكثرة حبي لها وخصوصًا بعد فترة غيابها عني أن أقف بكل هذا البرود أمام عينيها

تبًّا أصبحت أجمل بكثير بعد أن غابت عني وكأنها تتقصّد لفت انتباهي ، ولكن حماسي الأكبر سيكون عندما أسمع لها تبريرًا يناسبها

ولكن السؤال الذي يراودني .. هل سأُسامحها ؟

بدأت الحفلة ، وعقلي ليس معي أبدًا .. عقلي وقلبي معها

معها هي ..

سامر يعزف بمهارة كبيرة ..

ولكني ألاحظ عندما يعزف الفنان يغمض عينيه أثناء العزف

وأنا منهم طبعًا ، ولكن لماذا ؟

ما علاقة العيون بالعزف ؟

أيعقل أننا نرى من نحب أثناء العزف ؟

أو ربما ننسج أحلامًا بعزفنا نأمل بأن تصبح حقيقة يومًا ما؟

يومًا ما قريب جدًّا منا فنحن نأمل بكرم الله ..

قاطعني تفكير آخر .. بدأتُ أفكر ماذا سأقول عندما تعطيني مبررًا ؟

هل ستكون كاذبة أم صادقة ؟

كانت تشغل تفكيري .. أو بالأحرى لعنتها حلّت عليّ

عندما أواجهها سأخبرها بأن تفكّ طلاسمها عنّي

أريد أن أعيش كما كنت

وكيف كنت ؟

لقد نسيت أيضًا ..

كنت قبلها أعيش وسط أحلام كاذبة وكانت هي الحلم الحقيقي

فقط ، وما أجمل الحقيقة وسط الأكاذيب ..

أحلام وردية وسط أحلامٍ وحشية..

ولكن ما يخيفني أن تكذب عليي

أخاف أن تكون هي الكذبة ، وإن كانت هي الكاذبة بذاتها فعيناها أصدق عيون أراها على الإطلاق ..

فأنا أحب عينيها .. عينيها فقط .

انتهت الحفلة ، وقاطعني تصفيق الناس للعازفين ..

بـــدأت نبضـــات قلبـــي تـــزداد ، وكنـــت أخشـــى أن يصـــل صـــوت النبضات إلى بيلا ، أو بالأحرى أن تسمع قلبي يناديها ..

خرجتُ من الصالة وأنا أتعمّد التجاهل ..

أستاذ طوني

قالها سامر وهو يلحق بي ..

التفتّ إليه

-أخبرني أرجوك .. كيف كان أدائي ؟

-يليـــق بـــك الوقـــوف علـــى المســـرح ، ويليـــق بـــك أن تكـــون مبدعًا

-بارك الله بك يا أستاذي .. الفضل يعود لك

-واجبي لا أكثر ، هل استلمت جائزتك ؟

-لا بعـــد قليـــل ســـيتم تســـليم الجـــوائز ، ولكـــن أريـــدك أن تكـــون بجانبي يا أستاذي .. فإني أتباهى بك جدًا ..

-فخور بك ، وسأكون بجانبك .. تفضل

ذهبت مع سامر للقاعة الداخلية لاستلام الجائزة ..

وكـــان عقلـــي يقـــول بـــأن لقـــائي مـــع بـــيلا ســـيكون فـــي وقـــت لاحق..

فلا مزيد من الوقت ، وستظن بأني رحلت متجاهلاً لها ..

بدأت تتصل بي وقررت حينها أن أتجاهل الاتصال ..

تذكرت تلك الأيام التي مررت بها بدونها

من أين امتلكت القوة بأن أتجاهل اتصال فتاة مثلها ؟

وعن أي فتاة ؟

أمها هي من تضغط على اسمي وهي تُمسك بالهاتف..

ولكــن لا يهــمّ .. طــالبي الــذي ظــن أنــه لــن يــنجح سيســتلم الآن جائزة

دخلنا القاعة ..

وبدأ الجميع يصفق

ألقيت سلامي على الجميع

الأستاذ علي : وهذا أيضًا مدّرب سامر في المعهد ..

-تشرّفنا بك

قالها مصمم الحفل الكبير

-بك يا أستاذ

-الأستاذ علي : تفضل لاستلام الجائزة يا سامر

أخذ سامر الجائزة من يد المدرب علي ..

سامر : أستاذي وأقولها أمام الجميع وأمام زملائي المخلصين.. أريد توجيه هذه الحائزة لك يا أستاذي .. فأنت تستحقها أكثر مني ، قمت بتشجيعي وحثي على الإبداع ..

ويقولون : لا أحد يريد لك الخير

ولكن أنت يا أستاذي أنت أثبتّ لي العكس

وهذه الجائزة تستحقها أنت ، فبفضلك صعدت على هذا المسرح الكبير ..

وواجهت جمهورًا كبيرًا ، ولم أتوقع يومًا بالحصول على الشيء الذي عليه الآن ..

كنت أظن بأني سأبقى فاشلاً مدى الحياة .. وجئت أنت لتعطيني كلامًا مشجّعًا كدواء لمريض أرهقته الحياة ..

خذها من يدي يا أستاذي ..

-لا يا سامر ، نجاحك هذا نجاحك أنت وبجهودك أنت وبفضلك انت وسببه أنت ، كان كلامي بقصد التشجيع فقط فأنت من خلقت من الإرادة معجزة ، هذه جائزتك وتستحقها أنت ..

-أستاذي أرجوك لا تخذلني .. خذها مني فهي تريدك لك

وبـــإذن الله كمـــا ربـــي أكرمنـــي بـــالوقف مـــرة علـــى هـــذا المســـرح سيكرمني بالوقوف مرة ثانية ..

-إن شـــاء الله ، ولكـــن فـــي هـــذه الدقيقـــة ســـأخذلك ولـــن آخـــذ الجائزة، فأنت وأنا واحد اعتبرني أنا من أخذتها

-حسنًا يا أستاذي ، وأريد شكرك مرة ثانية ..

الأستاذ علي : حوار جميل جدًا ، تمنيت أن أكون به

-ولكـــن أنـــت بفضـــلك نحـــن واقفـــون هنـــا .. ولكـــن أريـــد الاستئذان بالخروج ، بالتوفيق يا زملاء ..

-بالتوفيق أستاذ طوني

خرجتُ من القاعة ونظرت لهاتفي

فكانت ثلاث مكالمات لم أجب عليها من بيلا ..

في الحقيقة فرحت كثيرًا لعدم إحابتي لها

وكأن الله وضع أمامي سامر كي يخلّصني من اللقاء اليوم

أحيانًا يبعث لنا الله أشخاص لينقذنا من أشخاص ..

أنا أؤمن تمامًا بأن الله لا يريد بعبده سوى الخير

حتى وإن كان شرّاً يوجد خير بين كل هذا الشر

الإشارات الربانية وحتى الأشخاص هم قدر لنا ..

وسامر كان لي الإشارة الآن ..

ركبتُ سيارتي وتقصّدت أن أتجول في الشوارع ليلاً ..

لا شيء أجمل من الليل .. التجول في السيارة ليلاً متعة ..

الهـــدوء ، والنجـــوم ، ومنظـــر الســـماء لـــيلاً يشـــعر المـــرء بالطمأنينة ، طمأنينة الله رائعة جدًا ..

الليل والأسْود والهدوء والنجوم جميعهم أنا ..

وأضيف شيئًا آخر هو المطر ، فقد أحببته من أجلها ..

أحيانًـــا شـــيء عـــادي يحبـــه مـــن نحبّـــه تلقائيًـــا نحـــب معـــه هـــذا الشـــيء العـــادي ، ولـــم يكـــن بإرادتنـــا أبـــدًا ، إنمـــا هـــي فطـــرة مـــن الله ..

نحب ما يحبون ، ونكره ما يكرهون ..

وأنـــا أحـــبّ المطـــر لأجلهـــا .. وأحـــب الهـــدوء رغـــم ضـــجيج أفكاري

وأحـــب الليـــل لأنـــه يشـــبهني كثيـــرًا ، الليـــل لا ينامـــه العاشـــق والمتألم

وأنـــا كلاهمـــا ، وأحـــب النجـــوم لأنهـــا كالأمـــاني التـــي يخبؤهـــا الناس في السماء ، أملاً بأن تتحقق

أماني بيضاء تلمع كقلوب بعض البشر .. كقلبي مثلاً ..

وعنـــدما يختفـــي هـــذا الـــنجم فـــي الليلـــة التاليـــة فيعنـــي هـــذا أن أمنيةَ شخصٌ ما تحقّقت .. وكم أتمنى اختفاء نجمي ..

عتدما يختفي نجمي أكون بجانبها هي ..

بقيتُ طوال الليل أسري بسيارتي في الشوارع ..

لا أحد معي سوى القمر والذكريات ، وعندما حَزِن القمر على حالي قرّر الاختفاء .. رغم أني تمنّيت بقاءه إلا أنه رحل وتركني وحيدًا مع الذكريات ، بدأت خيوط الشمس تتعالى معلنةً للقدوم ..

قرّرت الذهاب للمنزل وأغيب غدًا عن المعهد تقصّدًا ..

أريد النوم .. ولا شيء أجمل من النوم

هو مسكّن الآلام ، هو موطنٌ آمن بعيد جدًّا عن هذا الموطن الضوضائيّ ..

أردتُ أن أغلق هاتفي طوال هذا اليوم ، سأسلّم نفسي للنوم فقط

ذهبْتُ للفراش ، وكان جسدي منهكًا جدًا ..

أغلقت الهاتف كي لا يزعجني أي أحد باتصاله ، بدأتُ أتقلّب يمينًا شمالاً دون جدوى ، وكأن النوم اضحملّ واندثر ..

بدأت أفكر عند أول لقائي بها لم أعد أراها في أحلامي ..

وكأنها تقصّدت الخروج من تلك الأحلام إلى أرض الواقع..

وفتاة مثلها أراها فتاة أحلامي وفتاة واقعي وفتاة خيالي
باختصار أينما حلّت هي فتاتي وديارِي أنا
وبعد طول تفكير بدأ النوم يرتشفني رويدًا رويدًا
وبدأتُ أستسلم له حتى ابتعلني وغصتُ في أعماقه .

في زمنٍ من الأزمان غير زماني التقيتك ..
كنتِ تحملين كتابًا فيه دواوين لنزار قباني ، ومن الواضح أنكِ امرأة تحبّين المساواة
وأنا رجل يحب هذا النوع من النساء القويّات
قلتُ لكِ : دعيني أروي لكِ قصائد الحبّ من هذا الكتاب
فقلتِ حينها : لا أستطيع قراءة هذا الديوان ولكن أستطيع أن أشعر به ، ولا أريدك أن تقرأ لي بل أريدك أن تراقصني

الكمنجات يتعالى صوتها ، وكلما اشتدّ الصوت أكثر
احمرّت خدود السماء خجلاً ..
كانت الشمس تغيب كي تتركنا سويًّا
أخذتُ يدكِ وبدأت بمراقصتكِ ، وكانت عيناكِ مغمضتان في الأحلام وعيناي مفتوحتان في أحلامي التي تتحقق أمامي الآن
كنتِ تحلمين بي ، وأنا أحقّق حلمك بوجودي معكِ
اندثر ضوء الشمس ، وبقي ضوؤكِ

ثم صعقكِ الظلام فأردتِ الرّحيل
كنت أتمنى بقاؤكِ بينما كنتِ تتمني المغادرة
أوصلتكِ للمقعد الذي أخذتكِ منه
فاندثر طيفك من أمامي ، صرتُ أبحث عنكِ في الظلام
فهل بقي من طيفك أثر؟

غصتُ في جوف الليل بحثًا عن أثرك ..
وبعد بحثٍ طويل لم أجد سوى ذكرياتك واشتياقك .

استيقظتُ الساعة السابعة مساءً ..
استيقظت من نوم عميق جدًا ، تفقّدتُ هاتفي وإذ بأربع مكالمات هاتفيّة فائتة منها
وفي صندوق الرسائل كتبت لي : في تمام التاسعة مساءً ألتقي بك في المطعم دون أي عنوان له ..
كانت تستقصد بهذه الرسالة كي أتصل بها وأعرف العنوان
ومن الواضح أن أم بيلا هي من تتصل وترسل لي الرسالة وبيلا هي من تخبرها بماذا تكتب ..

هكذا الفتيات ، إنهم شقيّات جدًا وذكيات ..

اتصلتُ على الرقم ، وبعد دقيقة واحدة بالضبط جاءني صوت ناعم وموسيقي ، إنه صوتها ..

-ألو .. طوني ؟

-ما أخبارك ؟

-تأخرت بإجابتك ولكن أمي كانت تحضر لي الهاتف ..

-لا عليكِ ، ولكن وجدتُ منك مكالمات فائتة ، هل من أمر ضروري ؟

-نعم ، فاليوم لم تحضر في المعهد ، هل حصل شيء ؟

-لا ولكن كنتُ متعبًا قليلاً وخلدْتُ للنوم ..

-خير إن شاء الله وكيف أصبحت ؟

-الحمد لله أفضل

-أريد اليوم مقابلتك في تمام التاسعة ، وفي المطعم المقابل لشارع منزلك

-سآخذك معي إذًا

وبعد أن أغلقت السماعة ذهبت مُهرولاً للخزانة ..
كنـــتُ أودّ أن أتـــأنق كثيـــراً الليلـــة ، وبـــرغم أنهـــا لـــن تســـتطيع رؤيتي ، ولكنها ستشعر ...
إنها تمتلك إحساس داخلي أقوى من إحساس البصر
ولذلك أحبّتني ، وكشخصٍ مميز مثلها سأتأنق لأجلها ..
لقائي بها سيجعلني أشعر بأني أقع بحبّها كأوّل مرة
ولكن لا بأس فأنا كل يوم أقع بحب هذه الأنثى من جديد
تختلف عن الآخرين بأنها كل يوم بطقس جديد
وكفنان مثلي لا أشبهها إلّا كالمقطوعة .. تتغير باستمرار
ولا تقف ، هذه هي فطرتها ..

ولن أنكر بأني أود سماع أي تبرير لها كي أسامحها
حتى لو كان كاذبًا ..
الـــوهم أحيانًـــا يكـــون جميـــل جـــدًا .. نتمســـك بـــالوهم لنبقـــى مـــع من نحب
بيّلا عزيزتي .. لا أحد يشبهكِ ، إن أربعينك يجتمعون بكِ
وأنتِ الأربعون شبهًا ..
لعلّ هذا اللقاء يقلب تاريخي رأسًا على عقب
لعلّـــه ينســـيني مـــرارة البُعـــد ، ويجعلنـــي أقـــع بـــك كـــأول مـــرة رأيتك بحلمي يا كلّ أحلامي

فإن قلبي يئنّ لا يريد هذا الجفاء أكثر ..

حنـــى لـــو كـــان مظهـــري ثابتًـــا جافًـــا أمامـــك إلا أنـــي لا أريـــد غيركِ

بـــالله عليـــكِ لا تجعلـــي تبريـــرك هـــشّ وكـــاذب فـــأعود لـــك كطفـــلٍ وجد أمه

فتجدي كبريائي منكسرًا أمام كبريائكِ ..

وتكتشـــفي قلبـــي يعـــاني مـــن عنـــان الفقـــدان .. دعـــي هـــذا التبريـــر منطقيّ أرجوكِ ..

اتصـــلتُ بهـــا قبـــل خروجـــي ، وأخـــذتُ منهـــا عنـــوان منزلهـــا الجديد

وأخذتُها من منزلها ..

لـــم نـــتكلّم طـــوال الطريـــق .. كنـــت متـــوترًا جـــدًا وهـــي بكامـــل هدوئها ، وكأني أنا من غادرتُها دون أي مبرّر

أي فتاة هذه ؟

مع من أنا الآن ؟

قلبهـــا جليـــديّ جـــدًا ، ولا تشـــعر بـــي أبـــدًا .. هـــي تشـــعر بنفســـها فقط دون أحد

كان الهدوء يسير بيننا .. يسير برشاقة

كنــتُ أخشـــى أن تســمع ضـــجيج أفكـــاري بينمـــا هـــي كانـــت لا تخشى أن أسمع هدوء داخلها

هي كالجبل .. شامخ ومنتصب

جبل جليدي

ولكني سأكون كالشمس ، سأحرق هذا الجليد

لا أريد أن أتكلم أي شيء الليلة .. أريد أن أسمعها فقط

مسامعي وافقتني الرأي ..

وقلبي أيضًا سيزهر بسماع صوتها الدّافئ

دخلنا المطعم والجو كان باردًا نوعًا ما

أجلستها على الكرسي ، وجلست مقابلاً لها ،

الجــو بينـــي وبينهـــا مشـــحون بالهـــدوء التـــام ، ولـــم ننـــبس ببنـــت شفة

طلبنا القهوة ، وبدأت أراقبها ، وأراقب تصرفاتها

وفـــي هـــذه اللحظـــة شـــكرت الله أنهـــا لا تســـتطيع رؤيتـــي لكانـــت علمتْ بأشواقي ، وعلمت بأني لا أريد غيرها

الحمد لله

قررت أن أكسر هذا الهدوء ، وقلت :

-ظننتُكِ نسيتِني

-وهل ينسى القلب من أحبّ يومًا ؟

-إن كان قلبك دولة فيكون دستورها النسيان

-صدقني إن كنتُ نسيتك فقلبي لا ينسى من شعر معه بالحب للمرة الأولى ، وإن كنت لم أحبك من البداية لما عدتُ لك

-والمحب لا يرحل

-المحب الصادق إن رحل رغمًا عنه عاد ، وإن كان حبًا كاذبًا لن يعد ولو بعد مئة عام

-والآن إلى أين ستعودي ؟

-الآن أعود إليك ، وإن رحلت لن أرحل إلا إليك ، افتح لي قلبك ، وأعدني إليه منذ أن رحلت عنك وأنا تائهة

-وهل البعد عذاب ؟

-أكثر مما تتصور ، فالبعد عمن نحب غربة ، وأنت يا حبيبي غربتك قاسية ومؤلمة ، والآن أشعر أني في وطني بين أهلي أنت دياري

-وما سبب البعد هذا ؟

-أريد منك أن تصدّقني ..

عندما تركتني لحظة فشلي في التدريب قررت حينها الرحيل بعيدًا ، ليس قلة محبة والعياذ بالله

بل لأني لا أحب أن يرى أحد ما ضعفي ، وكنت مشوشة كثيرًا حينها ، فساعدني أحد الطلاب للخروج ، واتصلت بأمي فأخذتني

-وهل أنا أحد؟

-ولكن حتى أنت لا أحب أن تراني ضعيفة وفاشلة

-ولكني أحبك في جميع ظروفك يا بيلا

-كنت أخاف أن تقول لي فاشلة أو ضعيفة

-بماذا تهذي حبّا بالله ؟

-قررت الانتقال إلى بيت آخر وأن أعتزل الناس لفترة من الزمن .. ألم تشتاق لي ؟

-كثيرًا كثيرًا ، وجودك هو أجمل شيء في حياتي

-قل لي أين ذهبت في غيابي

-سافرت إلى الريف واستضافني صديقي في بيته ودارت الحياة .. دارت الحياة حتى أفقدتني صوابي في رحيلك ..

وفي نهاية الأمر أخذني الطريق إليكِ

دعيني أقول أحبكِ ، ويا ليت هذه الكلمة هي تعبير كافٍ عمّا يدور بداخلي

أنا أحبّك جدًّا ، وأنا غير مستعد للبعد عنك ولا أي لحظة

انظري حتى أني لم أخلع خاتمي من اصبعي

خفتُ إن خلعت هذا الخاتم ينخلع قلبي معه

-حتى أنا لم أخلعه ، ولن أستطيع أن أعبر عن حبي لك مثلك، لأنك دومًا تستطيع أن تنتقِ كلماتك ، تنتقيها كإزالة الشوائب من الماء ..

- هذا ليس انتقاء أنا لا أنتقِ الكلام أنا أتحدث معك بكل عفوية

-كل هذه عفوية؟

بدأنا نضحك ، وشربنا قهوتنا ، وتناولنا العشاء ، ثمغادرنا

ركبنا السيارة وكانت هي تنظر للشوارع تتأمل ، وأنا أنظر إليها أتأملها كاللوحة الفنيّة

-اسمعي

-ماذا ؟

-إنه صوت " المطر "

-المطر لا ينزل للأرض ، المطر ينزل لقاع قلبي حيث أنت

-غريب جدًا ، معظم الناس يحبون المطر ، وهم لا يعلمون أثناء هذه اللحظة تكون الغيوم تبكي بغزارة

-هنالك نوع من البشر يحبون أن يروا الناس تبكي ، فما بالك أن تكون الغيوم ؟

-دعينا ننزل ، لا أريد أن أفوّت أي لحظة معك ، فكل لحظة هي ذكرى عندما نعود لها لاحقًا نبتسم

-والأروع من ذلك عليك أن تجعل جميع لحظاتك سعيدة كل تبتسم لاحقًا ..

-هيا هيا لننزل

نزلنا من السيارة وما أحلى المطر وبيلا

كان الليل غارقًا بدجاه ، والغيوم تبكي بغزارة

أخذت بيدها وبدأت مراقصتها كالمجنون

راقصتها وكأنها لم تبعد عني يومًا ، هذه هي فطرة الإنسان

يتغاضى كثيرًا عن أخطاء من يحب
وكلّما زاد الحب زاد التغاضي عن كثرة الأخطاء
وفي النهاية نصل إلى نقطة سوداء مبهمة من الأخطاء
وأي خطأ كهذا ؟
البعد دون مبرر واضح
مالي والحب ؟
مالها والبعد ؟
فلم أدرِ بأنها ستكون آخر رقصة لنا
وأي رقصة ؟
ليلة لم تكن كالليالي السابقة ..
ليلة سجلتها في خندق ذاكرتي
هذه الليلة جعلتني أبتسم لاحقًا
لم تكن سوى ذكرى معطّرة برائحة المطر
دوّنتهـــا .. وكلمـــا اشـــتدّ هـــذا العطـــر فـــي ذاكرتـــي ازددتُ ابتسامةً
ولم تكن أي ابتسامة
إنها ابتسامة الاشتياق .. برغم أنها بجانبي
ولكني أشتاقها
كتبتُ ذات مرة :
أنا كما أنا
ومن أنا ؟

أنا الجسد بلا روح
أنا سجين الأحلام
طفيف المعاناة
أنا صديق نفسي
ونفسي ليست معي
ولا أحمل سوى الخيبات
أجرّ ثوب الأحلام
أملاً أن تتحقق
أخبّئ هذا الثوب كعنقود
من عناقيد النجوم
إن اختفى النجم
خرجت لنفسي
وما أبشع فقداني لنفسي
أيتها الحياة
لا تدعيني بعيدًا عنكِ
فإني اشتقتكِ
ويا لكِ من أين قسوتك
إن كنتِ تريدينني بعيدًا
أعطني روحي
وإما خذيني إليكِ
فأنا لست هامشك
بعد أن كنتُ أنا أنتِ

صاحَ عقلي معلنًا الحرب على قلبي :

-كيف اكتشفت نفسك واقعًا بحبها يا طوني ؟

كانـــت كلمـــة أحببتَهـــا تشـــعل حريقًـــا بصـــدري .. هـــل حقًـــا أحببتها؟

زفّت هذه الكلمة شعور ما إلى قلبي

قلت لعقلي :

كثيـرًا مـا كنـت أرتـب كلامـي قبـل مقابلتهـا .. وعنـدما أقابلهـا تتبعثـر الكلمـات وتختفـي تمامًـا .. أتصـرف كطفـل عفـوي وبـريء ، ولا أحتـاج إلـى أي تبريـر لأي تصـرف ، وهنـا اكتشفت الحب

والمُحـب لا يـرى لمحبوبـه خطيئـة .. المحـب يـرى المزايـا فقط

حتى كل الخطايا يراهم " مزايا "

وكم أتمنى في يوم من الأيام أن تراني كما أراها

ردّ عقلي :

ولعـلّ هـذه المشـاعر مؤقتـة ، وحتـى لـم تكـن مؤقتـة .. قـل لـي ماذا تفعل إن لم تبادلك بنفس الشعور ؟

-سأحاول .. وفي النهاية الفوز لا يليق إلا لشخص يحاول

والحـب لـدي شـيء مقـدس تمامًـا ، ولكنـي أعـرف أنـك لسـتَ راضٍ عـن هـذه العلاقـة ، ولكـن قلبـي لديـه مشـاعر لا بـدّ أن تعيش

أليس كذلك؟

-اتفقنـــا أن تحـــب بعقلـــك لا بقلبـــك .. وتبقـــى اختيـــارات العقـــل أفضل من كل شيء

-والإحساس كأن أقوى من أيّ تفكير

بعد فترة وجيزة خطرت ببالي فكرة السفر للريف ...

إلى صديقي سعيد ، ولا بدّ أن آخذ معي نصفي الآخر

كثيراً ما تمنيت أن تقبل

وأنا أخذت هذا القرار بغية التقرب أكثر فأكثر

تخيلوا حتى لم يخطر ببالي المعهد وحضوره أبدًا

ألهذه الدرجة يأخذنا الحب حتى من أعمالنا؟

أنا الذي كنت مواظبًا في عملي لا أقبل التقصير

ولا أقبل أن يُقصر أي أحد بعمله

هكذا أصبحت؟

لا بدّ أنها لعنة وحلّت على رأسي

وعلى أدراجي

أشـــعر بـــأن هـــذه اللعنـــة حلّـــت منـــذ أن بـــدأتُ أســـمع عزفهـــا فـــي حلمي

وحتى الحلم من الممكن أن يصبح حقيقة

ناموا جميعًا هيّا إلى النوم
أرى أن لا شيء أجمل من النوم
ناموا واحلموا بأشياء جميلة ربما تتحقق ذات يوم

وفي اليوم التالي قررنا النزول إلى الشارع كي نتمشى قليلاً
قلتُ لها :
-ما رأيكِ بأن نذهب للريف .. نذهب أنا وأنت وأمك
نستأجر هناك منزلاً لكِ ولأمك ومنزلاً لي ..
-فكرة جيّدة جدّاً ستحب أمي الفكرة
-عظيم

سافرنا بعد أسبوع ، ولكن لم نسكن بنفس الريف الموجود به صاحبي
قمنا بالعيش في ريف آخر
واستأجرنا منزلاً لبيلّا وأمها ... وسكنت أنا بمقابل منزلهم تمامًا

بيلّا : الهواء هنا نظيف جدّاً
قالتها ونحن نسير في أرجاء الريف
أومأت رأسها قائلةً : ليتني أستطيع البصر ، ولو أني أرى لاستطعت أن أتمتّع بالمشاهد الطبيعية الخلّابة

-هل أوصف لكِ المكان أم أنك تعيشين المشهد في خيالك ؟

-صف لي يا حبيبي فأحيانًا الخيال يعكس الحقيقة

-ولكـــن يبقـــى الخيـــال أجمـــل بكثيـــر ، فالخيـــال بإمكانـــك أن تعيشي فيه بحرّية وبحق الرفاهية على عكس الواقع تمامًا

-لقد مللتُ من خيالي لقد عشتُ فيه أكثر ممّا تتخيّل

لقـد عشـتُ لحظـاتي الجميلـة والتّعيسـة فـي الخيـال أكثـر بكثيـر من الواقع

-دعيني أصف لكِ المكان

نحـنُ الآن نسـير فـي طريـق علـى جوانبـه أشـجار تصـفُ كخـطّ العسـكر ، والآن فـي هـذه اللحظـة أصـبح لـون الشّـجر أخضرًا كلونِ عينيكِ ، والغيوم تحجب ضوء الشمس

لقـد هربـت الشـمس مـن حُجرتهـا عنـدما رأت ضـوءك يسـطع أكثر منها ..

وهنا الطريق طويل لا يوجد أحد به

لا يوجد في هذا الطريق سوى أنا وأنتِ والطبيعة

بالنسبة لحال الطقس اعذريني فأنا لا أعرف

كلما كنتِ معي أشعر بحرارة داخلية طفيفة

كرجـلٍ نـاري ، تخيّلـي إن ضـربتني النـار لـن أشـعر مـن شـدة الحرارة

إن تقــدّمنا أكثــر ســنرى حقــول القمــح الصّــفراء ، أو كــان علــيّ أن أقول : سنرى خصلات شعرك

وبالجانب الأيسر : يوجد أزهار تداعبها الفراشات

تداعب خدّك

وبعــد ربــع ســاعة تمامًــا ســتغيب الشّــمس ، وســتودّعنا بالشّــفق الأحمر

كلون شفتيكِ

-أنتِ تشبيهن الطّبيعة كثيرًا ، تشبهينها يا ربيع أيّامي

-التشــبيه جميــل جــدًا ولا أعــرف مــاذا ســأتكلم ، حتــى أنــي لا أمتلك حق الرّد

-لا تقــولي أي شــيء وجــودك معــي هــو الــرّد ، سأوصــلك للمنزل فأمك ستتفقد غيابك الطويل ..

-حسنًا

-يجــب أن نســتغل الرحلــة هنــا ، مــا رأيــك بــأن نســافر غــدًا إلــى الريــف الــذي يســكنه صــاحبي ، وبــالرغم أن الأريــاف هنــا جميلة جدًا ، ولكن نجرب

-ليس لدي أي مانع سنرى أمي أولاً

أوصــلتُ بــيلا لمنزلهــا ، وعــدتُ لمنزلــي ، وتفكيــري معلــق بها

لم يخطر ببالي سوى أنني أحبها ، والمحب لا يكره

لا يكره إلا إذا نزع الله من قلوبنا الحب

نحن متكاملان ببعضنا

هي تحب بعقلها وأنا أحب بقلبي

ولكــن كثيــرًا مــا أســمع أن حــب العقــل أجمــل بكثيــر مــن حــب القلب

عندما نحب شخصًا نحبه بعقلنا

الحب يحتلّ الذاكرة ، والذاكرة في حالات الفراق كارثة

والفراق مرض .. مرض لا شفاء منه إلا بالعودة

العودة إلى من نحب

في الصباح التالي توجّهت إلى منزل حبيبتي

دلفتُ إلى الداخل كانت تشرب القهوة

جلســتُ بجانبهــا وأشــعلتُ ســيجارة بينمــا أمهــا تجلــس بالمقابــل لي

-ما رأيك يا خالة أن نغير الريف؟

-ليس لدي مشكلة ، ولكن ما به هذا الريف؟

-كــذلك هــذا الريــف جميــل ، ولكــن أريــد أن أعــرّفكم علــى صديقي

فما رأيك بالمغادرة اليوم ؟

-لا مانع ، ولكن لم أجهز شيء بعد

-سأنتظركم هنا ، وادخلوا أنتم جهّزوا الحقائب

-ألا تريد أن تجهز حقائبك أنت؟

قلت بمُكر :

جاهزة ، وعلى قيد الانتظار

نظرت لي الخالة بتعجب :

أهاا تخطط وتجهز ثم تخبرنا

قلت :

وأنتظر التنفيذ منكم

بيلا لم تشاركنا الحديث فهي كانت تنتظر الإجابة من أمها

دخلوا وجهّزوا الحقائب ، وعزمنا على الرحيل ..

وصلنا إلى ريف صديقي ذهبنا إليه جميعًا ..

استقبلنا سعيد بصدرٍ رَحِب

سعيد : اشتقتُ إليك كثيرًا

قلتُ له بحرارة واشتياق : أنا أكثر يا صاح

ثم تابعتُ :

أريد أن أعرّفك على شريكة حياتي وأنيسة أيامي

بيلّا هذا صديقي سعيد .. صديقي منذ الطفولة

سعيد : تشرّفنا

لقد حذثني عنكِ هذا الطائر الحزين الذي يقف بجوارك

-قلتُ له بإحراج : إنه يقصد بالطائر السعيد أليس كذلم يا سعيد؟ استقبِلنا الآن

-تفضلوا تفضلوا

-سوف نستأجر بيتًا قريبًا من هذا المنزل ، وأنا سأبقى هنا ضيفًا

-أنت أهلٌ لي يا صاح ، ويوجد أيضًا هنا مساكن تُعرض للإيجار ، وإن شئتم نذهب إليه عندما تريدون

-ستبحث عندما نرتاح قليلاً

قالت الخالة باللهجة اللبنانية :

وشقد رح نضل هون ؟

قال سعيد نفس اللهجة : حضرتكن من لبنان ؟

الخالة : اي من لبنان وطلعنا ع لندن كرمال بيلّا تكمل بمواهب العزف ، وشوفها أحسن عازفة

-لندن بتتشرف بعالم متلكن ، وأنا من لبنان

-أهلين بابن البلد

،يا هلا فيكِ

-النا الشرف وقت تعرّفنا عليك

التفت سعيد نحو بيلّا وقال :

-اي بيلّا تخرّجتِ من المعهد ؟

-لديّ سنة وسأتخرج

التفتَ سعيد نحوي ثم قال بمُكر :

وأستاذكم ؟ ما حاله معكم ؟

قالت بابتسامة خجولة:

لا يوجد أجمل منه

تابعتُ أنا :

لقد أحببت تدريب الطلاب على العزف من أجلها

نظر سعيد نحو الخالة وقال :

لقد بدؤوا عصافير الحب

بدأنا نضحك جميعًا

قلت :

هيّا معي إلى المطبخ لنرى ما عندك

-شاب أعزب وبائس ماذا تريد أن يكون عنده؟

-هـــذا البيـــت يســـكنه فيـــل ، فمـــن الطبيعـــي ألّـــن يبقـــى بـــه أي طعام

عدنا نضحك مرة أخرى

-إن قمتُ بالرد عليك سأعترف بوجودك ..

تعال معي كي نحضر الشاي

دلفنا للمطبخ

وبدأنا بتحضير الشاي

اقتربت من صديقي وقلت :

قل لي بصدق هل أحببت الوضع؟

-جميلة جدًا وجذابة وخجولة

قلتُ بفخر واستعلاء :

-تعلم من صديقك كيف يختار ، ولكن اصمت وانسَ ما سألتك

قال بسخرية :

كأنك تغار أيها الطائر؟

في الحقيقة شعرت بنيران تأكل قلبي وتبتلع شراييني

شعرت بالدماء تتدفق بوجهي فتملأ سطح الكون بأكمله

-لا أبدًا .. هيّا أكمل تحضير الشاي أنا سوف أدخل ..لقد تذكرت هل تعلم أني وجدتُ لك عروسًا ؟

قال باستهتار :

أنت تعلم أني لا أود الارتباط بأي أحد

-ولكن هذه العروس لا تُفوّت أبدًا

-من هي؟

-السيدة ناديا "أم بيلا"

-اخرج بسرعة

-ألم أقل لك أنها لا تُفوّت؟

-إنها لا تشبه ابنتها أبدًا

-على الأغلب تشبه والدها

-يجوز

-ولكن لم تخبرني .. هل أتحدث مع الخالة من أجل خطوبتكما؟

-هل تعلم ماذا أفعل إن أصبحت حماك؟

حينها لن أزوجك ابنتي

خرجنا في فترة المساء واستأجرنا منزلاً قريبًا من مسكننا

عاد كل منا لمنزله ، والشّمس جهّزت أغراضها وأعلنت رحيلها ..

ذهبتُ لفراشي بعد يوم طويل وكثيف من التعب

إلا أنني لم أنم ..

كنت أتذكر تفاصيل اليوم

وكان هناك شيء ما يجول في رأسي

ماذا إن افترقنا ؟

ماذا إن عزمت على الرحيل حتى ؟

ماذا أفعل ؟

ماذا يفعل كل عاشق عند هذه اللحظة ؟

بدأت الأفكار تسلب رأسي مني ولم أصل لشيء

لم أصل سوى لموقف واحد

النوم

غصت في نوم عميق أنقذني من لحظة الموقف

في صباح اليوم التالي قررتُ أن أكلم بيلا من أجل العرس

قررت التأهل للزواج..

كنت أخاف من لحظة الفراق كثيرًا وهذا الذي دفعني للزواج

تناولنا الفطور أنا وسعيد ، ثم ذهبت إلى منزل حبيبتي وأخذتها

بدأنا نتجول شوارع الريف

الجو لطيف جدًا ، والمكان شديد الجمال

كنت أرتب كلامي في دماغي من أين سأبدأ

حتى قاطعت تفكيري وقالت :

لماذا لا تتكلم ؟

-في الحقيقة أردت أن أتكلم معك بخصوص شيء ما

-تفضل قل

-سأقولها بدون مقدمات

تتزوجيني؟

توقفتْ لبرهة وقالت بذهول :

ماذا قلت ؟

-ألم تسمعي؟ هل تقبلين بالزواج مني ؟

لمَ ذُهلتِ ؟ نهاية المطاف بنا هو الزواج

-في الحقيقة لم أتوقع أبدًا أن تسألني هذا السؤال

-وسألتكِ الآن ماذا ستجيبين؟

لم تنطق ببنت شفة حتى

توقّفنا عن السير

أمسكتُ بيدها ثم قلت :

لمَ لا تجيبي؟

ألا تريدي الزواج مني؟

-أنا لستُ جاهزة للحظة كهذه

انظر يا طوني أنا فتاة ضريرة ؟

أتعلم ماذا تعني كلمة ضريرة ؟

إن تزوجنا لن أستطيع أن أقوم بخدمتك وخدمة المنزل

إن أنجبت لن أستطيع أن أرعى أطفالنا

سوف تتولى أمرهم أنت .. لن أستطيع فعل أي شيء

أنا لدي عجز تام عن كافة هذه الأمور

ستقوم أنت بدور الأب والأم معًا

-بماذا تهذي أنتِ ؟

-عندما قررتِ الارتباط بي أخبرتِني بهذا الكلام وقلتُ لك أني موافق .. ما الذي حدث الآن ؟

-لقد وعيت على نفسي

قلتُ بعصبية :

-بعد ماذا ؟ بعد أن تعلّقتُ بكِ ؟

بعد أن أنصفتِني روحي ، وسلبتِ مني قلبي

لمَ عدتِ إلي إن كنتِ لا تريدين الزواج مني؟

لماذا حاولتِ الرجوع بشتى الطرق

قولي .. أجيبي بأي مبرر

هزّت رأسها نافيةً ، ولم تنطق بأي حرف

كانت الصواعق تضرب رأسي

فخطرت ببالي فكرة

قلتُ لها : سأعطيكِ عيناي

بدأت الصدمة في ملامحها وكأن تلك الصواعق ضربت من رأسي لوجهها

قالت : مستحيل .. ماذا تهذي ؟

-أنتِ تعطيني حجة كي لا نتزوج وأنا أعطيكِ حلاً لهذه الحجة

وما الذي يمنعك من الرفض؟

-عيناك .. نظرك .. كيف تستطيع أن تتخلّى عن هذه النعمة مقابل الحب ؟

-ليس حب فقط .. إني أحبك أكثر من حب واحد
وأريد أن أثبت حبي لك ..

طأطأت رأسها أرضًا ثم قالت :
أنا أعرف أنك تحبني
-ولهذا السبب ترفضين الزواج بي .. المرأة يا سيدتي تحب
الشخص الذي يتجاهلها ليكون محطة اهتمامها والعكس صحيح
-هذا الكلام غير صحيح
-إذاً لماذا ترفضين الزواج بي ؟
-لأنك ستقوم بدور الأب والأم معاً .. هذا غير المهام المنزلية
والأصعب من ذلك أني لن أرَ أطفالي إن أنجبت
ولن أتزوج إن كنت ضريرة أبدًا ..

اقتربتُ منها ، وأمسكتُ بيديها قائلاً :

-قلت لك لن تكوني ضريرة .. سأعطيك عيناي
سأعطيكِ مسكنك وسكينتك ، وهل يوجد أغلى من عيناي لديك؟

قالت بخجل وحزم :
مستحيل أن أقبل ومستحيل أن أسلب نظرك منك
ما ذنبك أنت؟

أفلت يديها قائلاً بخيبة :
أحيانًا الذنب هو الحب

ابتعدتُ قليلاً عنها ثم قلت :
فكّري جيداً .. وأنا بكِلا الحالتين سأتزوجك إن قبلتِ أو لا
فكّري ستعيشين معي بنظر أو ستعيشين بدونه

صدقيني يا حبيبتي الشيء الوحيد الذي أتمناه هو إبقاؤك سعيدة ، ولا يوجد أجمل من أن نرى من نحب سعيدًا
وليس المهم أن كلانا يستطيع رؤية الآخر
أنا وأنت شخص واحد .. ويكفي أننا نتنفس هواء واحد
وحتى النظر .. نظر واحد يكفينا
صحيح أني لم أروِ ظمأ رؤيتي لكِ ،
ولكن حان الآن دورك كي تريني ..
تريني لبقية العمر
-وأنت ؟

اقتربت منها أربّت على كتفيها

-أنا وأنت شخص واحد لا تقلقي

وعـدتك ذات مـرة أنـي سـأجعلك مثلنـا تمامًـا ، وأريـد أن أحقـق حلمك

سأوصلك لمنزلك وفكري جيدًا أنت

لا أريدك أن تندمي أبدًا على قرار اتخذته

ولا تنسـي أن تفكـري بعقلـك ، فالقلـب أحيانًـا يُـودي بنـا لقـاع الخذلان

-سأفكر .. وسأخبرك

عندما عدتُ للمنزل ، وأخبرت سعيد لم يصدق حيث قال :

- هل أنت جُننت ؟

نظرتُ له ببرود ثم قلت :

لمـاذا؟ فـي الحقيقـة لقـد مللـت مـن الغيـاب ومـن الوحـدة وعنـدما سـألتها عـن السـبب هـي جـاوبتني بصـدق ، وحتـى أنـي مسـتعد أعطيها أي شيء حتى تكمل معي

-ولكن وضع هذه الفتاة لا يعجبني

-أعيـد وأكـرر لـك هـذه الفتـاة مسـتعد أن أعطيهـا كـل شـيء والمهـم أن تبقـى معـي ، وأنـا لـذلك أسـرعت فـي اتخـاذ قـرار هذا الأمور كي لا تتركني كما فعلت مسبقًا

- طــوني كفــى بــالله عليــك عنــدما تركتــك لمــاذا لــم تســأل هــي عــن مشــاعرك وأحاسيســك بينمــا تســأل عنهــا الآن بكــل هــذا الاهتمام؟

قل لي هل تستطيع أن تنسى كل تلك الأيام بسهولة؟

-أنا لذلك قررت أن أعطيها عيناي

وقف سعيد غاضبًا ، وبدأ يتجول في أرجاء الغرفة

ثم وقف أمامي قائلاً بغضب :

أنت تعلم ماذا يعني أن تفقد حاستك البصرية ؟

نظرتُ له ببرود وقلت :

نعم أعلم

-وعنــدما تتــزوج لــن تســتطيع رؤيــة أطفالهــا ، وســترعاهم أنــت .. ســوف تعــيش أســوأ أيــام حياتــك بينمــا يجــب عليــك أن تعيش أجملها

قلتُ بِحِدّة :

لن يهمني أي شيء سواها

ثم أردفتُ قائلاً :

هذه الفتاة أهلي

أنا عندما كون معها أشعر وكأني طفل صغير وهي أمي

وأنا لا أريد أي شيء في هذه الحياة سوى هذا الشعور
أريد أن أشعر بشعور الأبوّة ..
وأريد أن أشعر بأن لدي هوية ، وانتماء لأي شيء
أريـــد أن يكـــون لـــدي عائلـــة ..لا أريـــد أن أكـــون مجهـــول الهوية
أصـبحت شخصًـا ناجحًـا ، وأنـا فـي الحقيقـة لـم أبحـث عـن هـذه الأشياء سابقا

كان هدفي النجاح فقط
ووفقني الله .. ولكن بعد تحقيق النجاح؟
شـــعرت أن شـــيء مـــا ينقصـــني ، وعنـــدما رأيتهـــا قلـــت :إنهـــا هي
وعقلي هو من اختارها دعني أجرب كفاك يا سعيد اتركني

-لا أعـــرف مـــاذا ســـأقول لـــك ، ولكنـــي شـــعرت بأنهـــا تســـتغلك فقط
-أنا سأذهب للنوم
وقبل أن أدخل غرفتي رنّ هاتفي ..
هل تدرون من المتصل ؟
إنها بيلّا ..
لقد رأيت اسم حبيبتي
ازدادت نبضات قلبي وازداد توتري أكثر
ازدردت ريقي .. وأخذت هاتفي ، وسرتُ سريعًا لغرفتي

جاء صوتها الذي ينعش أذني

-كيف حالك ؟

-الحمد لله وأنت؟

بدأت تتلعثم ، ثم قالت :

-بالنسبة لحديثنا أنا موافقة ، وتكلمت مع أمي وقالت لا يوجد مشكلة

شعرت وكأن عرسًا يقيم بداخلي

-وأخيرًا سنتزوج؟

تنهدت بفرحة ثم قلت :

سأرى في أي مشفى نعمل العملية

خرجتُ من غرفتي وكأن الحياة تغمرني

تغمرني بالسعادة .. سأتزوح بمن أحب

بدأت أقفز بأرجاء الغرفة ، وأصرخ بأعلى صوتي سوف أتزوج

حدّق بي سعيد باستغراب وبدأ يتأمل ملامحي بدقّة

-ما بك ؟

-كلّمتني الآن وأخبرتني بأنها موافقة

قال بذهول :

موافقة ؟

-لمَ الاستغراب؟

-كيف لها بأن تقبل بطلب كهذا ؟

هي لو تحبّك لما وافقت أبدًا ، وهل أنت واثق بأنها ستبقى معك ؟

عندما تصبح كفيفًا ستتركك وترحل لغيرك

ستدوس على قلبك وترحل .. الأنثى تحب الرجل الكامل

-لن أَلُمْكَ بحديثك هذا .. لقد دهست قلبك محبوبتك من أجل رجل غني .. فمن الطبيعي أن تتحدث معي هكذا

-سأذهب لشراء الحاجات ، وافعل ما تشاء كل منا لديه عقل ويجيد التصرف

خرج سعيد من المنزل ، وبدأت أرقص كالمجنون

ولكن كلمات سعيد تعبث برأسي .. ماذا لو غادرتني بعد العملية ؟

وهل ستحب شكلي الخارجي؟

هل يستطيع أن يحب إنسان إنسان آخر دون أن يراه بمجرّد أن تعامل فقط مع روحه؟

الشيء الذي أؤمن به هو أن حب الروح مختلف جدًا عن حب الشكل

إنمـــا الملامـــح ســـتموت بـــبطء بفعـــل الـــزمن ، وستكســـوها التجاعيد
أما الروح لا تموت بل تحيا أكثر

بدّلتُ ملابسي سريعًا ، وذهبت لأقرب مشفى
وتحدّثت مع طبيب العيون من أجل تفاصيل العملية
وقمنا بتحديد موعد لخضوعها .. بعد أسبوع
لديّ أسبوع واحد فقط لأستطيع رؤية ما حولي
أسبوع واحد وبعدها سأنتقل لحياة أخرى
سأنتقل لحياة الظلام ..

عنـــدما عـــدتُ لمنزلـــي لـــم أكـــن أشـــعر بشـــيء لا بفـــرح ولا بحزن
الشـــيء الـــذي أفكـــر بـــه مـــا الـــذي أســـتطيع فعلـــه خـــلال أســـبوع واحد فقط ..
أول فكرة خطرت لي هي التبرع بالأموال للفقراء
والفكـــرة الثانيـــة بـــأن أبقـــى قريـــب جـــدًا مـــن بـــيلا كـــي أشـــبع عيناي برؤيتها

ذهبتُ لها فورًا وأخذتها من منزلها ..
بدأنا نتجول ، وقررت حينها بأن أخبرها من أجل العملية

-لقد ذهبت اليوم إلى المشفى

فتحت فاها بذهول وقالت :

ماذا؟ وماذا قال ؟

وقفنا قليلاً وأمسكتُ بيديها وبابتسامة قلتُ لها :

لدينا أسبوع واحد فقط وسنخضع للعملية

في البداية عارض الطبيب فكرتي ، ولكنه قال لي بأنه يحسدك يا بيلا من أجلي

-محظوظة أنا بك فعلاً

-بقي معارضًا لفكرتي حتى أقنعته ، وحتى نسبة نجاح العملية ستكون ممتازة

ولكن أخبريني يا حبيبتي متى تحبين أن نحدد موعد العرس ؟

-أفضّل أن تكون بعد شهر من العملية .. حتى نستقر على حالتنا الجديدة ، وسنسافر للمدينة من أجل أن ندعُ الطلاب والأساتذة في المعهد

-فكرة جميلة ، وهناك فكرة تراودني أيضًا .. ماذا لو لم تحبّي شكلي الخارجي؟

-كيف لا أحبك وأنا أعشق روحك؟ إن عشق الروح صعب يا طوني

ابتسمتُ ابتسامة شريرة ، وبدأنا نتمشى بهدوء

قلتُ لها :

هناك بعض الناس لا يحبون من خلال الروح بل الشكل

-أنا يا حبيبي أكره السطحية جدًا ..

-كيف تريني في خيالك؟

-قلت لك سابقًا ألم تذكر ؟

-وهل ستقومين بمغادرتي عندما تريننـي؟

-يستحال على الإنسان أن يترك إنسانًا يحبه

-ولكنــك يــا حبيبتــي تعيشــين فــي عــالم الخيــال ... لــم تــأتِ لهــذا الواقع أبدًا

-ولن آتِ إليه .. أخاف إن جئتُ للواقع أموت حيّة

والأصعب من الموت هو الواقع

نظرتُ لها بنظرات عميقة قم قلت :

لذلك الخيال أجمل

-الأشياء التي تأخذها بخيالك يأخذها الواقع منك

ابتسمتُ ثم قلت :

-إن كنتُ أراكِ في واقعي جميلة فما لحالي عند الخيال؟

ضحكت ثم قالت :

أعدك أنك لن تعود للواقع أبدًا

ثم تابعت قائلة :

وماذا من أجل المعهد ؟

-ما به؟

-كيف ستستطيع العزف؟

-سأتدرب وأعود أقوى من قبل ، وستعلميني أنت

-تعجبني الإرادة القوية .. أتدري ماذا ؟

إني واقعة في حب عقلك

-وأنا واقع بحُبك كلك

-العقل الجميل أجمل بكثير من الشكل

-أظن أن تفكيرك هذا سيزول بعد العملية ، وستقعي في حب الشكل ، وستقومي بنسياني ، وسترحلي عني

توقفتْ عن السير وقالت :

ما هذا التفكير؟

قاطع حديثنا رنين هاتفها

-لو سمحت أخرج هاتفي من حقيبتي

-حاضر

المتصل والدتك ..

-حسناً أخبرتني ألّا أتأخر وتأخرت

-سأوصلك

بعد مرور أسبوع

ذهبنـــا للمشـــفى أنـــا وســـعيد وبـــيلا وأمهـــا ، وجلســـنا فـــي غرفـــة الانتظار

-تجهّزين نفسك لرؤيتي؟

-أشد الحماس

قمتُ من مكاني وجلستُ بجانب سعيد .. مقابل بيلّا تمامًا

قلتُ مبتسمًا :

أريـــد الجلـــوس هنـــا كـــي أتأملـــك .. لحظـــة التأمـــل الأخيـــرة هـــي أحزن لحظة

قالت في خجل :

تأمل ما شئت

همس بأذني سعيد :

لن تتراجع؟

-فكرة التراجع مستحيلة لدي

خرج الطبيب من الغرفة قائلاً :

-Hello

-Hello

نظر باتجاهي ثم قال :

-Are you ready?

-yes

ثم نظر باتجاه بيلا

-And you?

-yes

-Come here please

ثم دخلنا ...

لم أكن أشعر بشيء .. مقيّد بالظلام

شعرتُ أنني في عالمٍ وحدي لم يكن أي أحد معي

رأيت نفسي في الظلام جالسًا ضاممًا ركبتيّ لصدري

كانت أفكاري ثقيلة جدًا لدرجة شعرت بها بأني أدفن رأسي بين ركبتي ، وليس رأسي المدفون

وللحظة وجودية شعرت بأن هناك عالم آخر في الظلام

إنه عالمٌ خفيٌّ ما بين الحياة والموت

عالَم تهدأ به الروح وتستكين لبرهة
هذا العالَم أسكنه أنا الآن
كانــت هــذه الأفكــار تُتــوّج رأســي حتــى شــعرت بــأن أحــد مــا خلفي
يلمس شعري
نظرتُ ببطء .. إنها أمي
لم أستطع رؤية وجهها جيّدًا من شدّة النور
كانت ترتدي ملابسًا بيضاء
مدّت يدها إليّ مبتسمة وقالت : تعال فوالله اشتقت إليك

مددْت يديّ إليها حتى بدأت تبتعد رويدًا رويدًا
نهضتُ سريعًا من مكاني وسِرت خلفها
ما إن كدْتُ ألمس يدها حتى عدتُ للواقع
عــدت للحيــاة الشــؤومة .. لــم أســتطع رؤيــة أي شــيء مــن حولي
بالرغم من أنّ عيناي مفتوحتان ولكن الرؤية مُعدمة تمامًا

سمعتُ صوتاً بجانبي ..
صوت امرأة ، ولكن تبًا لا أستطيع رؤيتها
سمعتها تقول لي :
استيقظ أميري الجميل
قلت لها :عفواً من يكلمني؟

-حبيبي أنا رنا زوجتك ما بك؟

كنــتَ تنــام نومًــا عميقًــا هــذه الليلــة ، وكنــت كثيــراً تقــول فــي نومك بيلا .. بيلا

فل لي من هذه؟

-أنا لست متزوجًا

-ماذا تقول وتُخرّف؟

-اسمعي أنا لا أستطيع الرؤية بتاتًا

-كيف؟ بماذا تهذي أنت حبًا بالله؟

-أمامي ظلام دامس .. وحتى لا أستطيع رؤيتك

اقتربت الزوجة واضعةً يدها أمام عينيّ طوني

-كم عدد أصابعي الآن؟

-لا أعرف لا أعرف

جلستُ على الفراش

أكملتُ قائلاً : وحتى أني لا أذكر ماذا رأيت في حلمي

-أيعقل حلمًا يجعلك كفيفًا ؟

-هذا الذي لا أستطيع تفسيره

-تــذكر تــذكر يــا طــوني ، أو انتظــر ربمــا هــذا تــأثير النــوم عليك

علينــا أن ننتظــر للغــد حتــى نتأكــد إن كانــت حالتــك هــذه مــن تأثير النوم أم لا

-لن أستطيع تحمل الانتظار إني أكرهه جداً
-اصبر يا حبيبي لن أتركك سنحلّ المشكلة معاً

قامت رنا من جانبي ، وبدأت أستعيد ماذا رأيت في حلمي
أين كنتُ يا ترا أين كنت؟

وعندما تذكّرت صُعقت .. بدأت أصرخ :
رنا .. تعالي بسرعة

جاءت رنا مسرعة

-هل حصل شيء ؟
-لقد تذكّرت ..
-كنتُ في مشفى أتبرع لفتاة بعيناي .. اسمها بيلا
-وبعدها ؟
-لا أعرف ولكني أتذكر نفسي جيدًا وكأني في ذلك الحلم بواقع
-وهل أتممت العملية

هززتُ رأسي إيجاباً
-أيعقل بأن تتبرع بعينيك في حلمك وتستيقظ فجأة بلا عيون؟

عفوًا بلا نظر

-هذا الذي يثير جنوني

-سنذهب لطبيب اليوم .. سأجهز نفسي

عادت رنا بعد ربع ساعة .. هيا بنا

ذهبنا للطبيب ، ويا ليتني لم أذهب

قال لي بأن حالتي طبيعية جدًا وعيناي لا يوجد أي ضرر بهما

المثير للدهشة بأن عيناي خضراوتان ..

عيناي عيناي فتاة .. لا تليقان لرجُل

أتدرون ؟

حتى أن الطبيب استهزأ لِحالي عندما أخبرته عن حلمي

ونعتني بالمجنون

وتغزّل بعيناي أيضًا ..

قمت بإجراء تحاليل أيضًا ..

لم يكن لديّ أي وضع سيء

وعدنا للمنزل

-ما الذي عليّ فعله الآن؟

-من كان معك في الحلم ؟ وما الذي حلمت به بالضبط؟
-لا أتذكر أي شيء
-سأدعك وحدك ، وحاول أن تتذكر أي شيء
-حسنًا

خرجت زوجتي من الغرفة

-حاول أن تتذكر يا طوني .. تذكر تذكر
رناا

-قل ؟
-صديقي سعيد
-ما به ؟
-كان معي
-سأتصل به كي يأتي
-قولي له بأن لا يتأخر
-سعيد كيف حالك؟
..
هلّا قمت بزيارتنا في أقرب وقت؟
..
أهلاً وسهلاً

أغلقت رنا الهاتف وعادت إلي

-مسافة الطريق وسيكون هنا .. لا تقلق

سأحضر الشاي ريثما يأتي

صوت طرق على الباب

-افتحي بسرعة إنه سعيد

-تفضل يا سعيد أهلاً وسهلاً

دخل سعيد ورنا للغرفة ..

-ما هذا ؟

عيناي صاحبي خضراوتان وجميلتان؟

تليق بك العدسات الخضراء يا صاحبي .. لستَ بقليل أبدًا

لو كنتَ فتاة لتزوجتك

قل لي لماذا لا تنظر لي؟

نظر سعيد باستغراب نحو رنا ..

ما الأمر؟

قلتُ :

يسـرّني أن أخبـرك بـأن عيناي الجميلتان هم عيناي الحقيقيتان

-ماذ تقول؟

رنا : لهذا اتصلت بك واستعجلتك

-أخبروني ماذا يحصل

أخبرته بالقصة كاملة ..

-أتعلم يا سعيد ؟ ما أجمل بأن حلمك يتحقق

لا أصدق بأن حلمي تحقق

رنا : هل هذا الوقت للسخرية ؟

سعيد : دعيه يفرح يا رنا .. ما أجمل تحقيق الحلم !

ثم تابع قائلاً :

والله أنك يا صديقي تحب عمل الخير وخاصة للفتيات

قل لي هل الفتاة التي تبرّعتَ لها بعينيك جميلة ؟

-انظر لعيناي الآن ستعرف

-الله .. أتعلم لو أني كنتُ مكانك لمَا خرجتُ من الحلم أبدًا

رنا : كفى بالله عليكم ..

سعيد نحن أتينا بك كي نحل المشكلة معًا .. الموضوع لا يُستهان به أبدًا

-حسنًا سأقدم لكم اقتراحًا جميلاً

رنا : تفضل

-لدي صاحب لي يستطيع بأن يعيدك للحلم .. تستطيع أن تقول

نوم مغناطيسي

ستعود لنومك وستبحث عن الفتاة وتستعيد منها نظرك

-فكرة جميلة جدًا قم بحجز موعد مناسب

-لا .. هــو صــديق لــي رغــم تفدمــه بالســن ، ولكــن هــو وابنــه صديقان لي

هيا قم معي سنذهب الآن ..

رنا : بالله عليكم أخبروني ماذا سيحدث؟

-ادعي لي يا حبيبتي

قالت بعينين دامعتين :وفّقكما الله

سعيد : لا تقلقي يا رنا سنعود ونحن نحمل عينيّ طوني

ضحكنا وخرجنا

أخذني طوني بسيارته .. حيث أوقف سيارته

-وصلنا

أخرجني سعيد من السيارة وسرنا

كنت أسمع أصوات حشود من الناس

سعيد : توقف دقيقة هنا سأتصل بصاحبي

انتظر هنا لا تتحرك سآتي إليك

ابتعد عني صديقي وكأن العالم كله ابتعد عني

أصــوات ضــجيج ورؤيــة معدومــة .. شــعور ســيء كــان بداخلي

سمعت أحداً يقول :

انظر لعينيّ هذا الشاب .. عيناه كعينيّ الفتيات

وبدؤوا بالضحك

عاد لي سعيد وقال :

سـندخل .. تكلمـت مـع صـديقي وهـو تكلـم مـع والـده وسـيدخلنا أولاً

فتح لنا الباب سكرتير العجوز

-تفضلا هو بالداخل ينتظركما

-شكرً لك

أدخلني صديقي ووصلنا لغرفته الخاصة

العجوز : أهلاً بكما .. كيف حالك يا سعيد ؟

-سعيد والحمد لله وانت يا عم؟

لم يُجب أبدًا

العجوز : سبحان الله عيناك جميلتان جدًا

قلتُ :سلّمك الله .. العينان اللتان أمامك قادمتان من حلم

وأنت ستساعدني كي أعيدهم لأصحابهم فأنا أكره الأمانة

العجوز : لم أفهم

-سأخبرك بكل شيء

أخبرته بقصتي الصعبة ..

بدأ يضحك

-قل لي يا عم لماذا تضحك؟

-لأول مـرة تـأتني حالـة كهـذه ، ألـيس عيبًـا أن تسـرق عيـون الناس؟

-يــا عــم أرجــوك جئــتُ إليــك مــن بعيــد كــي تســاعدني ، ولــيس بأن تسخر مني

-حسنًا أريد منكما أن تناما هنا

سعيد :ما علاقتي أنا ؟

العجوز : ألم تكن معه في الحلم ؟

نظر سعيد نحو طوني وقال :

طــوني تأكــد هــل أنــا الــذي كنــت فــي الحلــم أم أنــك تستشــبه بأحــد مثلي؟

-يســرني بــأن أخبــرك أنــك أنــت ، ولكــن يــا عــم هــل أســتطيع أن أخبر زوجتي وأطمئنها عليّ؟

-أخبرها .. لأنك ستتأخر عنها

نظر سعيد نحو العجوز :

ما الذي تقصده ؟

-ستعلم الآن

طوني : سعيد اتصل بزوجتي وأخبرها

-حسنًا سأعود

خرج سعيد من الغرفة وعاد بعد خمس دقائق

-أنا جاهز

العجوز :هيا بنا

استلقيا هنا ..

ولكـــن اســـمعا جيّـــدًا .. أريـــد منكمـــا أن تطبّقـــا كلامـــي دون أي تحريف به

أوّلاً ســـأُدخلكم الآن الحلـــم .. ســـتدخلان مـــن بـــاب كبيـــر جـــدًا ، وسيختفي هذا الباب فور نزولكما للحلم

وعندما تنتهي مهمتكما سيعود لكما الباب من نفس المكان

والشيء الأهم من هذا لديكم وقت محدد للذهاب والإياب

يعني أن لديكما فقط يوم واحد أربع وعشرون ساعة فقط

ستقومان بالمهمة بهذا اليوم

امســـك يـــا ســـعيد هـــذا الخنجـــر .. هـــذا الخنجـــر خـــاص بقتـــل الأرواح الشـــريرة ، وســـيحميكما خـــلال اليـــوم ، وســـتنتهي مهمتـــه قبـــل ســـاعة مـــن اليـــوم ، وأيضًـــا قبـــل أن أنســـى عليكمـــا بأن تفهما منها ما القصة حتى أقنعتك بأخذ عينيك

وحذارِ أن تبتعدا عن المكان ، وإن ابتعدتما لن تعودا أبدًا

وحذارِ أيضًا أن يفوتكما الوقت دون أداء المهمة

-حسنًا سنعود بإذن الله

والآن أغمضا عينيكما واسترخيا

استرخيا استرخيا

سترون أمامكما باب كبير ادخلاه ولا تخافا

لا أستطيع أن أصف المشهد .. كل شيء مظلم تمامًا

كل شيء مظلم حتى ظهر الباب الذي أخبرنا عنه العجوز

فتحتُ الباب وسقطت

وقعت أرضًا من مكان عالٍ جدًا .. ثم تلاني طوني

وإذ بصوت من جانب الباب الكبير العالي
-حذارِ الوقت ، وحذارِ أن تبتعدا عن هذا المكان

قــال ســعيد : يــا لــه مــن مكــان عجيــب .. عــالم بعيــد عــن عالمنــا يا طوني
يوجد أمامنا قصر كبير جدًا ولا يوجد أمامه أحد
قلت :لا نريد أن نضيع الوقت ، وإلا بقينا هنا
-سندخل القصر ، وسنبدأ بالبحث

سرنا باتجاه القصر .. الجو دافئ جدًا
سعيد : ليتنا لا نعود
-الشيء الذي يخرج من فمك هو واقعك
-حسنًا سنعد لك النظر ثم نعود .. انتبه جيّدًا سأساعدك
درج القصر طويل جدًا
-أريد أن أفهم ما الذي أتى ببيلا لهذا المكان؟
-حقًا أمر غريب
ها قد دخلنا أخيرًا
-كأن هذا المكان لا يوجد به بشر؟
-لا يوجد هناك خادم يتحدث مع خادمة

-قل لي ماذا إن رأتني بيلا؟
-لن تراك .. لن تلحق أبدًا لأني سأقتلها

سعيد : أيها الشاب لو سمحت؟
الشاب : تفضل ؟
-هل يوجد هنا فتاة تُدعى بيلا ؟
-الملكة بيلا
-ملكة؟
-نعم ، ولكن ماذا تريد منها؟
-أنا ضيف لها ومعي صديقي
-هل تحب أن آخذك إليها أم ستذهب بنفسك؟
-لا سأذهب بنفسي ، ولكن أخبرني أي هي الآن؟
-في غرفتها في الطابق الثاني بأول غرفة
-حسنًا شكرًا لك

تركنا الخادم وسرنا نحو الدرج
-أتدري يا طوني بأن ربع الوقت مضى
-كيف ذلك؟
-كأن هنا الوقت لا يوجد فيه بركة أبدًا

صعدنا على الدرج ..

طوني : بدأت أشعر بتوتر

-لا تتوتر

-حسنًا كلامك هذا أثار بي الطمأنينة فلن أتوتر

بدأنا نضحك حتى وصلنا لجانب الغرفة

سعيد : سندخل الغرفة ، وسنحل القصة لا أريدك أن تخاف أبدًا

-حسنًا أنا جاهز

سأفتح الباب ، وأنت ابق هنا

فتح سعيد الباب ، وإذ ببيلا تجلس أمام المرآة تُسرّح شعرها

سعيد :مرحبًا

بيلا : عفوًا ؟ ما الذي أتي بك إلى هنا

هيا اذهب

سعيد : لن أذهب

-حسنًا سأنادي عليك الخدم كي يأخذوك للشرطة

- اصرخي لمن شئت فلن يسمعك أحد .. الجميع في الطابق السفلي

قالت بذعر :

ماذا تريد مني؟ وما الذي أتاك إلى هنا يا سعيد

سعيد :

ستعلمي بعد قليل

بيلا : ما الأمر؟

- أحضرتُ لكِ معي ضيفًا سيعجبك

-من ؟

- افتح الباب جيدًا يا صاحبي

فُتح الباب ، ودلف طوني ببطء

سعيد :أتعرفين هذا الضيف ؟

بيلا بذهول : طوني ؟ كنت سأخبرك ولكن ...

سعيد : لا نريد أن نسمع منك أي شيء

بيلا : ولكني ..

سعيد مقاطِعًا : أخبريني ماذا كنتِ تريدين من طوني حتى أتيتِ لحلمه ، وسلبتِ منه نظره؟

بيلا : أحببته وهو قدّم لي المساعدة

أخرجَ سعيد خنجره وقال :

إن لم تتحدثي سأقتلك

بيلا : انتظر أرجوك

طوني : لقد تعبتُ كثيرًا وكثيرًا

لقد أحببتك أكثر مما تخيلي ، لقد جعلتني أتعلق بك وأنت مجرد فتاة في حلمي

كثيرًا ما تمنيت أن تحبيني بحجم ذرة ما أحببتك
كنت أنا الأكثر حبًّا ، وهذا الذي جعلني أُخذَل
وجعلني أموت حيًّا أيضًا
سعيد بذهول : هل تتذكر تفاصيل الحلم؟
طـــوني ببكـــاء : نعـــم ، ولكـــن مـــاذا تنتظـــر منـــي أن أخبـــر زوجتي؟
أحببتُ فتاةً في حلمي؟ أحتبتُها أكثر منكِ؟
لم أخبرها بالتفاصيل أبدًا

بيلا : حسنًا سأخبركم القصة كاملة
القصـــة بـــأن والـــدك يـــا طـــوني كـــان يعشـــق امـــرأة أُخـــرى غيـــر أمك
وهذه الامرأة هي أمي ..
أنجبـــت أمـــي مـــن أبيـــك ولـــم يتزوجهـــا ، وذات يـــوم كانـــت أمـــي تقود السيارة
وكنتُ أنا بجانبها ..
أتذكر أنها كانت تصرخ كثيراً وتقول :
تبًا له لم يتزوجني ، أين سأذهب بك ..
لعنكِ الله يا بيلا
بدأتْ تضرب على تابلو السيارة حتى اصطدمنا بشاحنة
وتوفّينا
وأنـــا جئتـــك كـــي أنـــتقم منـــك بعـــدما علمـــتُ أن والـــدك مـــات أيضًـــا بحادث سير مع أمك

طوني بصدمة : كيف ؟ كيف ذلك؟
أنتِ دمّرتِ حياتي بأكملها انتقامًا بأبي
وأنا ليس لدي أي علاقة

ولكن لحظة لحظة
المرأة التي كانت معك من تلك؟
كانت أمي لم أكذب عليك في هذا الأمر
سعيد بعصبية : كفى كفى كفى

أخرجَ سعيد الخنجر من جيبه
بيلا تصرخ : أرجوك لا
سعيد وهو يتقدم نحوها : أريد أن أستعيد نظر صديقي
بـــيلا وهـــي تتراجـــع للخلـــف : إن ضـــربتني بخنجـــرك ســـيموت صديقك أعدك
سعيد : أنتِ التي ستموتِ

ضربها خنجرًا بصدرها
وقال بعصبية : هيا استسلمي لأهداب الموت
بدأ طوني يشعر بما حوله ، وبدأ النظر يعود تدريجيًا
وبدأ الظلام يتلاشى

ثم رأى ذلك المشهد ..

دخـــان أســـود يخـــرج مـــن بـــيلا وهـــي تصـــرخ بصـــوت رجـــولي حاد غير صوتها الناعم المعتاد

وكأن بداخلها وحشٌ ما يخرج منها

صـــوت يتـــأوّه يمـــلأ عنـــان الـــدنيا تمنيـــت فـــي هـــذه اللحظـــة أن أستيقظ من منامٍ ما

فراق ذلك الدخان عن جسدها وفراقي عنها سواسية

لا يختلفان عن بعضهما البعض أبدًا

ســـقط الخنجـــر مـــن يـــد ســـعيد وتراجعـــت خُطـــاه حتـــى أصـــبح بجانبي تمامًا

تصـــاعد الـــدخان ثـــم ســـرى كســـرعة البـــرق ودخـــل جســـد صديقي

نظرت له بصدمة ..

نظـــر لـــي ســـعيد بغضـــب ، ومشـــى بســـرعة نحـــو الخنجـــر والتقطه

شعرتُ أنه سيقتلني

قـــال بصـــوتٍ ضـــخم وحـــاد غيـــر صـــوته المعتـــاد : قلـــتُ لـــك لـــن أتركك

انقضّ عليّ كالوحش وضرب ذلك الخنجر بصدري

وحدث الفراق ، وليس كأي فراق

لقد فارقت روحي جسدي

خرج الدخان اللعين من جسد سعيد ، وسقط سعيد أرضًا
نظر ببطء نحو طوني ..
ثم صرخ وتوجه بسرعة نحوه
-طوني .. أتسمعني؟
أرجوك لا ترحل .. فوالله الأمر لم يكن بيدي
شعرتُ أن أحدٌ ما التبسني
صاحبي أرجوك سامحني

أعرف أنك استعدتَ نظرك
ثم قال في نفسه : استعدتَ نظرك
الباب!
رفع جثة صديقه ، وقال :
يا الله ساعدني أريد الوصول للباب ، والوقت يداهمني
وصل لباب القصر ، والباب يبعده بمسافة ضئيلة
ركض نحو الباب وقفز قفزةً طويلة باتجاهه حاملاً جثة صديقه
حتى استيقظ وعاد للواقع ..

العجوز فوق رأسه : لقد عدت .. حمدًا لله على سلامتك
-سلمك الله .. أشعر بتخديرٍ تام في جسدي

-هــذا الشــعور طبيعــي جــدًا .. لقــد عــدتَ بــدون صــاحبك كمــا توقّعت

عدّل سعيد من جلسته ، وقال :

ولكنه هنا أمامي وأمامك

-لكن الروح اللعينة ضربته بالخنجر

بدأت دموع سعيد تنهار ، وقال :

لقد وعدتُه أن أعيد له بصره

يا لي من صاحب شرير ، والله لم أكن أقصد

-العلاقة ليست بك .. الروح التي لاحقته تُدعى بيلا

هــذه الــروح لعينــة ، وهــو أحبّهــا جــدًا وتمســك بهــا ، وهــي أصلاً جاءت تنتقم منه

-ولكني أيضًا وعدتُ زوجته بأني سأعيده لها

-أي زوجة؟

-زوجته رنا

-لا تهــذي .. صــاحبك أعــزب ، ولكــن الــروح اللعينــة تراقبــه منــذ فتــرة قبــل دخولــه لحلمــه وقامــت باســتدعاء زوجــة لــه ليست من الإنس

وأنت رأيتها بكونك صديق مقرب له

-أتقصد بأن رنا غير موجودة؟

-نعم ، لطالما خرجت روح بيلا ماتت رنا

-يا الله يا الله عقلي لم يعد يستحملني

بعد أسبوع ..

يجلس سعيد في القطار يتوجه نحو فرنسا

ويكتب في دفتره :

والآن أكتب هذه القصة البائسة .. قصة صاحبي طوني .. وأنا في القطار متوجه إلى فرنسا وأشعر بأن روح بيلا مازالت حية

ومن بعد ذلك اليوم أشعر بأني ملاحق من شيء ما

أصبتُ بتعويذات لا أعرف كيف ستكون نهايتي ، والشيء الذي أعرفه هو أني رميت كل شيء خلف ظهري وسرت..

سافرت كي أُشفى ..

صديقي أعلم أنك تسمعني ، وأعلم تمامًا أن روحك حولي أينما ذهبت ..

أعلم تمامًا أنك خُذلت مني ومن الفتاة التي أحببتَها

أعلم أنك خُذلت من كل شيء

ولكني أنا الآن أدفع ثمن قتلك وأدفع ثمن قتل تلك الروح

كان الثمن روحي وقلبي

وأني لم أكن سوى ثمنًا في هذه الحياة

وبقايا من قصص الجميع

ولم أكن حرًا كطيرٍ وديع

كنتُ أتمنى ..

يظلّ المرء يتمنى ويتمنى حتى يموت

يموت مودّعًا أحلامه بأعلى صوت في مزاد علنيّ

يا صاحبي

إن روح بـــيلّا تجلـــس بجـــانبي الآن فـــي القطـــار ، وتبتســـم لـــي ابتسامة خبيثة

وتقول لي : لن أتركك مهما حدث

رحمــك الله يــا صــاحبي كنــتَ ســندًا لــي فــي حياتــك ، وحتــى فــي مماتك أيضًا لم تنساني بأثَرِك هذا

وفي نهاية هذه القصة أكتب :

الكلمــات خلقــت كــي تُقــرأ لا أن تــدفن مــع روحــي بــين الســطور حيّة .

عزيزي القارئ

إيــاك أن تــنم لربمــا لعنــة بــيلا تراقبــك وتريــد أن تــزورك فــي حلمــك ، وتأخــذك لعــالم بعيــد كمــا فعلــت بغيــرك .. احلــم فــي يقظتك لربما أحلام اليقظة تتحقق .

تمت بفضل الله .